

# الاستفهام القرآني : دقائق وقائق دراسة نظرية تأويلية

اعداد

د. محمود توفيق محمد سعد

هذا البحث منشور في حولية  
كلية اللغة العربية ١٩٨٥  
( فرع المنوفية )

مطبعة الانسانية  
٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

skonelrouh 

١٨ يناير ٢٠٢٥ ١٤:٥٢

إلى أئمة نعمة محمد صابر  
 الذل معقود على أن تكون في حصة من الله لنا وللعلم  
 واصله قاطع  
 محمد توفيق  
 سلمة الرحمن

الحمد لله رب العالمين • والصلاة والسلام على سيدنا محمد  
 وعلى آله وصحبه والمسلمين أجمعين •

وبعد هذه دراسة تعنى بأسلوب الاستفهام في القرآن الكريم ،  
 وما يثيره من دقائق الفكر ورقائق القلب ، وهي دراسة تركز على  
 جدلية العلاقة بين التنظير الفكري والتأويل الجمالي المسلم •

ولما كان التنظير الفكري ضرورة لمسيرة التأويل الجمالي على  
 صراط مستقيم ، وكان بناء المعنى وتشكيله وتحبيره في القرآن الكريم  
 يركز على منهج غير منفصم عن منهج البناء والتشكيل والتحبير في لغة  
 العرب قبل نزول القرآن الكريم ، كان من الخير أن يتسع ميدان التنظير  
 الفكري في هذه الدراسة ، كما كان من تدقيق النظر في الكلمة الانساني،  
 حتى إذا ما استقر التنظير الفكري على انجودي استعدادا للايجار في  
 قماميس التأويل الجمالي المسلم اتخذت الدراسة من الكلمة الالهية  
 المعجزة الغاية القصوى ، عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذه  
 رشدا •

المنهج : -

هذه الدراسة في ابدارها التأويلي تحاول أن تهتدي بمنارات  
 منهج التحليل الداخلي للأصوص ذلك المنهج الذي يتخذ من النص



مادة رئيسية ، ينظر الى كل كلمة فيه — دق مقدارها أو جل — باعتبارها  
 عنصرا فيه ، لا باعتبارها جزءا منه . عنصرا يتفاعل مع بقية العناصر ،  
 تفاعلا يتناول جرسه ومعناه وإيحاءاته ليعطى مع بقية العناصر بنية  
 كلية ، كأنها أفرغت فراغا واحدا ، ولا ينظر اليها قط كجزء يقف بجانب  
 جزء آخر ينتهي الى هيكل قد يتداعى من بعد حين .

من هنا فإن هذا المنهج يبصر في كل عنصر بعدين :

— بعدا يبدو في دقة الاستخدام وعمق التناسب والتناسق  
 الماتع .

— وبعدا يبدو في حدة التفاعل مع بقية العناصر في بوتقة النص  
 كله .

وهو اذ يعتمد في تناوله النص الى فصل العناصر بعضها عن بعض  
 في أثناء التحليل والتأويل إنما يعفل ذلك الفصل الموقوت كيما يتوفر  
 الباحث على رصد كثير من ملامح هذا العنصر ، وخصائصه وسماته  
 للوقوف على مدى تناسبه وتفاعله مع بقية العناصر الأخرى ، ومع النص  
 كبنية لغوية تكون فيها العناصر على كثرتها وتعددتها واختلافها متداخلة  
 متفاعلة يستمد كل عنصر أكسير حياته وكيانه وقيمته من بقية العناصر ،  
 وفي الوقت ذاته يبعث هو فيها حياة وقيمة تسمو بها الى آفاق أرحب في  
 عالم الكلمة .

وذلك هو روح المنهج الذي تحاول هذه الدراسة أن تحبو على  
 لاجبه ومهيجه ، دون عزوف منها عن التزود بطبيبات منهج التحليل  
 الخارجى المفتون بالافراق في لحي الملابس الخارجية للنصوص  
 لكنها لا تأخذ منه الا لخير زاد .

واذا ما كانت ( فخائر الله ، وكنوز البر ، ولذة الأنس والشوق

اليه ، والفرح والابتهاج به لا تحصل في قلب فيه غيره ، وإن كان من أهل العبادة والرهو والعلم ، فإن الله - سبحانه - أبى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواء ، وهمته منعلقة بغيره ، وإنما يودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنى مع الله ، والغنى فقرا دون الله ، والعز ذلا دونه ، والذل عزا معه ، والمنعيم عذابا دونه ، والعذاب نعيما معه (١) .

إذا ما كان ذلك حقيقة الحقائق فإن هذه الدراسة لا تستطيع أن تزعم أن ركبها آمن في رحلة التنظير الفكري ، أو تزعم أن سفينها سالم في أبحار التوأميل الجمالي . بل إنها على يقين بالغ أنها ستكبو وستضطرب في رحلتها وأبحارها : فهل يشفع لها أنها صدرت عن قلب لم يبلغ الرشيد الروحي ، وأنها ما تعجلت ظهورها إلا بغية كلمة ناقدة لها تهديها سواء السبيل فتقيم العوج ، وتسد الخلل ، وتنتفي الخبث ، وتلقى فضول القول عن كاهلها لعلها تقترب يوما من الله فيفاض على صاحبها من كوثر القرآن الكريم .

### حقيقة الاستفهام وحده

المتبادر من صيغة ( الاستفهام ) الدلالة على طلب ما بعد السين والتاء ، فالاستفهام طلب الفهم وقد يقال له استخبار عند من لا يفرقون بين الاستفهام والاستخبار (٢) .

غير أن ثمة من يفرق بين الاستخبار والاستفهام وبين الاستفهام والسؤال

(١) ابن القيم : الفوائد ص ١٩٠ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠ هـ .  
المكتبة القيمة .

(٢) ابن سيده : شرح المشكل من شعر المتنبي ص ١٩٢ ، شرح المفصل لابن عيش ٨/ ١٥٥ .



— يذهب ابن فارس الرازي ( ت ٣٩٥ ) الى أن الاستفهام  
مرحلة تالية الاستخبار . اذ الاستفهام عنده ما سألت عنه ثانيا بعد  
أن سألت عنه أولا فلم تفهمه حق الفهم (١) .

ويذهب أبو هلال العسكري ( ت ٣٩٥ ) الى أن الفرق بين  
الاستفهام والسؤال أن الاستفهام لا يكون الا عن جهل أو شك من  
المستفهم ، أما السؤال فقد يكون عن جهل بما يسأل عنه أو علم به (٢) .  
والحق أن طلب الفهم أعلى منزلة من طلب الخبر ، فالأخبار  
يطلق على إيصال الكلام الى آخر وان لم يعقل السامع منه شيء ،  
والافهام لا يطلق الا على درجة من المعرفة والعلم والادراك والوعي  
للكلام وهي درجة ذات درك وذروة :

يمثل الدرك الأسفل من مستوى الفهم ما حد البلاغيون به  
الاستفهام اذ قالوا : هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن (٣) .

ليس القصد بالصورة هنا ما يتناوله الحس المشترك من وسائل  
الادراك الانساني ، بل يشمل ما يتناوله الادراك العقلي من معان  
ذات وثاقة بمدركات الحس المشترك . فالصورة تشمل ما كان من  
الأمر الحسية أو العقلية المتعلقة بها .

والمراد بالذهن ما به يكون حفظ ما يتعلمه الانسان ، فهو أعلى  
مقاما من العقل (٤) .

ويمثل الذروة ما عرفه ابن قيم الجوزية ( ت ٧٥١ ) اذ قال :  
« الفهم نعمة من الله على عبده ، ونور يقذفه الله في قلبه ، يعرف به

(١) الصحاح في لغة اللغة ص ١٥١ طبعة ١٢٢٨ هـ .

(٢) الفروق ص ٢٨ الطبعة الرابعة ١٤٠٠ هـ / بيروت .

(٣) السعد التفتازاني : المطول ص ٢٢٦ .

(٤) أبو هلال العسكري : الفروق في اللغة ص ٧٧ .

ويدرك ما لا يدرك غيره ، ولا يعرفه ، فيفهم من النص ما لا يفهم غيره مع استوائهما في حفظه ، وفهم أصل معناه » (١) .

البلاغيون وإن اكتفوا بتعريف الدرك من الاستفهام فإنهم لم يقبضوا في واديه ، بل كانت مسيرتهم إلى الذروة ذات خطا متقدمة وإن تكن متأنية . حقيقة كانت اقامتهم في هذا الدرك طويلة ، ولعلها كانت عن قصد بغية التزود واتخاذ النعدة ، فأكثروا من القول في ما لا يجاوز طلب حصول صورة الشيء في الذهن على الرغم من أن ذلك ليس من بضاعتهم ، ولا يقوح زهرة في واديه .

المهم أن حديثهم عن ما يعلق بهذا الإدراك قد يكون ضرورة بالغة من قبل شد الرحال إلى مدارج الذروة ، حين يكون الحديث إلى من لم يذلل راحلته في معارج العلم .

وهذه الدراسة لا تتيخ نياقتها في وديان هذا الأدرك من الاستفهام، إنما تمر فيها على ريث حيناً وحيناً على عجل ، استشرافاً بقارئها إلى ما هو جدير به .

هي — اذن — في حل من تفصيل القول في أدوات الاستفهام وخصائصها ، من حيث التصور والتصديق ، وما يطلب تصووره بكل ... الخ وإن أشارت إلى ذلك عرضاً .

معاني النحو في تراكيب الاستفهام القرآني

تمهيد : الاستفهام القرآني نوعان :

- ١ — استفهام من الحق عز وجل غير محكى عن أحد من الخلق .
- ٢ — استفهام من الخلق يحكيه القرآن عنهم .

(١) التفسير القيم لابن القيم ص ٤١ جمعه / محمد أويس الندوي -  
مطبعة السنة المحمدية .



ان نظرنا في بيان البلاغيين لحقيقة أسلوب الاستفهام بأنه طلب صورة الشيء في الذهن ، فان كلمة « الذهن » ان قيدت فأريد بها ذهن المتكلم ، فان المدلول اللغوي والاصطلاحي للاستفهام لا يستقيم مع النوع الأول من الاستفهام في القرآن الكريم : « الاستفهام غير المحكى عن أحد من الخلق » لأن الله — عز و علا — لا يطلب ذلك ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، ومن ثم فكل استفهام غير محكى في القرآن ينبغي أن يؤول الى ما يتلاءم مع كمال الله عز و علا •

وان أطلقت كلمة « الذهن » ولم تقيد بذهن المتكلم فشملت ذهن غيره ، كأن يسأل انسان آخر عن شيء في حضرة ثالث غير مسئول ، ولا يريد المستفهم حصول صورة ما استفهم عنه في ذهنه ، وانما في ذهن ذلك الثالث ، فان الطلب حينئذ يكون من المعاني العرضية ، التي لا تحصر في اطار حقيقة أو مجاز أو كناية ، فقد تكون من واحد منها ، كما هو شأن المعاني العرضية وحينئذ فان بعضا من الاستفهام في النوع الأول يمكن أن يتحقق فيه الطلب حين لا يراد حصول صورة الشيء في ذهن المتكلم خاصة ، وقد نبه الى شيء من هذا البهاء السبكي فقال : « الاستفهام طلب الفهم ، ولكن طلب فهم المستفهم ، أو طلب وقوع فهم لمن لم يفهم كائننا من كان » ؟

فاذا قال من يعلم قيام (زيد) لعمره بحضور (بكر) الذي لا يعلم قيامه : هل قام زيد ؟ فقد طلب من المخاطب الفهم أعنى فهم بكر • اذا تقرر هذا ، فلا بدع في صدور الاستفهام ممن يعلم المستفهم عنه ، واذا سلمت ذلك انزاحت عنك شكوك كثيرة ، وظهر لك أن الاستفهامات الواردة في القرآن لا مانع أن يكون طلب الفهم فيها مصروفا الى غير المستفهم والمستفهم عنه ، فلا حاجة الى تعسفات كثيرة من المفسرين (١) •



ما ذهب إليه البهاء أقرب إلى الفقه البياني القائم على شيء من  
الحسن اللغوي المرفف ، والاستشفاف الذوقي لواقع الكلمة المبينة  
الكاشفة .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن علينا كبلاغيين أن نلاحظ فرقا بين  
تأويل الاستفهام المحكى عن الخلق في القرآن على وفق مراد المحكى عنه  
وبين تأويله على وفق المقصود من حكاية القرآن الكريم وإيراده في  
سياقه الذي جاء على لاجبه ، ومقامه الذي أقيم فيه ، وذلك ما أرجو أن  
أوفق إلى تبين شيء منه في أثناء إبحارنا هذا .

### طبيعة هذه المعاني :

غنى عن التبيان أن كثيرا من استغمامات القرآن الكريم لا يحتاج  
إلى جواب لأنها من عالم الشهادة (١) وإنما يتولد من الأداة والتركيب  
صحة ملائمة وقرائن أحوال على لاجب سياق عام وخاص معان  
ثيرة تثير ما في العقل من دقائق الفكر وما في القلب من رقائق الشعور .  
هذه المعاني تمتاز بكثير من الخصائص والسمات ، من أبرزها ،  
أنه لا يمكن احصاؤها ولا الاحاطة بها وحصرها ، لأنها صورة لما تحرره ،  
وتصوره وتثيره أيضا من الدقائق والرقائق المتضاربة والمتماوجة في  
المحيط الداخلي لمن يحكى عنه القرآن الكريم ، أو لمن يتلقى ذلك الذكر  
الحكيم ، وذلك مما يستعصى احصاؤها والاحاطة بها .

ومما تمتاز به تلك المعاني أنها ليست بالكثيرة فحسب ، بل هي  
متكاثرة متنامية ، وتختلف في تنوعها وفي درجة ظهورها وخفائها باختلاف  
ادراكات المتلقى لها ، فهي حيناً على غاية من الظهور ، وحيناً آخر أخفى  
من سرائر النفس العتيدة . فتستعصى على العبارة ، بل قد يكون احساس

(١) أبو حيان : البحر المحيط ج ٢ ص ٤١٨ .



المتلقى يتموجها في التركيب قويا مفعدا نفسه وقلبه غير أن عجزه عن  
الابانة عنها أو عن شيء منها أشد وأعتى ، وإن كان ذا منطق وبيان .

وما يمتاز به هذه المعانى - أيضا - أنها من قبيل الافادة لا من  
قبيل الدلالة ، فهي عندما ليست من المجاز بنوعيه في شيء ، ويكفى لليقين  
بضلال الذهاب الى مجازية هذه المعانى عجز المحققين من أحبار البلاغة  
عن تحرير العلاقة بين هذه المعانى وبين المدلول الاصطلاحي للاستفهام ،  
وعن تبين من أى نوع من أنواع المجاز هذه المعانى ، وقد صرح بهذا  
امام المحققين المتأخرين : سعد الدين التفتازانى ( ت : ٧٩١ ) فعلى  
الرغم من ذهابه الى أنها من المجاز يقول : « تحقيق كيفية هذا المجاز  
وميان أنه من أى نوع من أنواعه مما نم يحتم أحد حوله » (١) وهم  
الذين أقاموا فروقا ومعانم بين نوعى المجاز المرسل والاستعارة . أما  
محاولة السيد الشريف ( ت : ٨١٦ ) تحقيق الكيفية وبيان النوع ،  
فمحاولة مكشوف عوارها ، فقد عمد الى ما كان دأبهم فى بعض وجوهه  
ثم حاول الهرب مما كان عسيرا بقوله « وقس على ما ذكرنا نظائره » (٢)

ومن أقوى وأصعب الكدى التى نتصدى من يحاول تحقيق كيفية  
المجاز وبيان نوعه فى هذه المعانى « أن الاستفهام قد يفيد معانى  
متعددة كالتقريع والتوبيخ والتعجيب فى نص واحد ، فإذا ادعينا أن  
الأداة مجاز فى إحدى هذه المعانى ، فما موقفنا من غيرها ؟ وهل يمكن أن  
نقول انها تنقل من معناها الأصل الى المعانى مجتمعة ؟

الواقع أن اللفظ فى المجاز ينقل من معناه الى معنى آخر ، لا الى  
جملة معان « (٣) .

(١) المطول ص ٢٢٥ .

(٢) حاشية السيد على المطول ص ٢٣٥ .

(٣) د . محمد أبو موسى : البلاغة القرآنية ص ٢٠١ .

أضف إليه أن هذه المعاني لم تجرد أدوات الاستفهام من معنى الاستفهام لتستعمل فيها ، بل تلك المعاني متولدة من معنى الاستفهام فيها ، و « الاستفهام مستعمل في حقيقته ، ولما لم يناسب المقام يفهم منه معنى مناسب له من غير استعماله فيه ، ألا يرى أنه لو استعمل اللفظ فيه لم يصح جعله متولدا من الاستفهام ، إذ القول يقتضي وجود معنيين ، وفي المجاز ينصب قرينة على عدم إرادة المعنى الحقيقي ، وكم بينهما » (١) .

أقرب من القول بمجازية هذه المعاني القول بأن هذه الأدوات قد أشربت معنى كذا وكذا ، فهي متضمنة لها مع معناها الأصلية تضمنا يحدث تفاعلا بين هذه المعاني ومعنى الاستفهام في بوتقة الأداة فيحيل مذاقها ونكهتها إلى شيء آخر غير ما كانت عليه قبل التضمين ، فليس النفي المستفاد من أداة الاستفهام في سياق ما في صحفية قرائن وملاحظات مختلفة كمثّل النفي المدلول عليه بلم ، ولا ، وما ، وما ، مذاقا ونكهة ، وطبيعة وتأثيرا .

وأداة الاستفهام حين تضمن معنى ما ، فذلك لا يكون على إطلاقه ، بل لما كانت أداة الاستفهام وهي على محض معناها ملاحظة لذلك المعنى وعلى صدر الهجوم عليه . (٣) فيكون التفاعل في بوتقتها على غايته ، فلا يدع محض الاستفهام على حاله ولا محض النفي مثلا ، أو التعجب .... الخ على حاله .

الأداة في هذا المقام لا تتخلّى قط عن معناها الأصلي ، ولا تبقى على حاله الذي كان عليه قبل . وحقا ما قيل أن « كل ما تضمن ما ليس

(١) المولى أحمد : شرح الفوائد ص ١٧٧ .

(٢) ابن جني : الخصائص ج ٢ ص ٤٦٤ .



في الآية السابقة من الاستفهام على ما ذكره المفسرون على ما  
تضمنه « (١) » .

وذكر المفسرون في الآية السابقة من ان اداة الاستفهام حين تقييد معنى  
المراد من الاستفهام لا معنى للاستفهام فتوجيه عبد القاهر عدم  
معنى قوله « انهم هم السفهاء » على قوله « انؤمن كما آمن  
سلفهم » ( البقرة / ١٣ ) بان قوله « انؤمن » استفهام ولا يعطف  
شعر على الاستفهام (٢) على الرغم من افادة الأسلوب « انؤمن »  
معنى الانكار والتعجب والاستجهاال .... الخ .

أما فيه تحريك التثنية بأن الهمزة وام في قوله تعالى ( سواء  
عليهم انذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ) ( البقرة / ٦ ) قد تجردت  
تضمن معنى الاستفهام . بل يكاد أن يجمعوا على ذلك (٣) فيما قرأت  
نهم . وخبر من نحدث في هذا منهم — عندى — الامام البقاعي ( ت :  
٨٠٥ هـ ) يقول الشيخ : « أى سواء عليهم انذارك في هذا الوقت بهذا  
كتبت وعدم اذارك فيه وبعده (٤) وقد أنسلح عن ( ام ) والهمزة معنى  
لاستفهام .

(٢) السيوطي : الاشباه والنظائر ج ١ ص ١٠٤ .

(٢) عبد القاهر : دلائل الاعجاز ص ١٦١ ت : المرافق ط (٢) .

(٣) الكشف ١٥١/١ + البحر المحيط ٤٤/١ - ٤٥ + انوار

المنزيل ٢٦٧/١ .

(٤) سمر بقوله ( فى هذا الوقت . . . ) الى وجه العذر عن المصدر  
الى الفعل . وهو ان فى الفعل اشارة الى أنه صلى الله عليه وسلم قد  
احدث الابدار واوحى فادى ما عليه لكنه لم يشر اليهم للمصائب الالهية  
لأنهم مع السجس منهم معان اخرى منها المسلمية له حتى لا يظن انه قصر  
على السامع . وهذا ببيان ان افعاله انما هي اسباب لا تملك النتائج وان

« اللهم اغفر لنا أيتها العصاة » انتهى .  
 في قولك : اللهم اغفر لنا أيتها العصاة . انتهى .

ولعله عبر بصورة الاستفهام وقد انسلخت عن معناه افهاماً لأنهم  
 نوعوا في كفر نوعا من وصل في الجدد الى أنه لم يشاهد الملك .  
 « جل جلاله » يستفهم منه ما آمن .... » (١) انتهى .

تكن أفعال سيد المرسلين فكيف بمن دونه ، وفي ذلك حمى لجسوسات  
 ومقام الألوهية وحمى لصفاء الفطرية فلا تخلط بين المقامين ، علاوة على  
 الإشارة الى أن الاستواء المترتب عليه هذه المعاني لم يكن من قبل ذلك ،  
 وإنما كان هنا ، لأنه قد بلغ بهم هذا الجحود والانكار كل مبلغ .

ذلك ما نفهم من استخدام الفعل دون المصدر ، مضافا اليه أن  
 استخدام المصدر ، لا يتأتى معه استخدام الهمزة وام وفيهما تكثير للمعنى  
 وانما ، فالمعنى في سدواء عليهم انذارك وعدمه تقريري خامد غير منقد ،  
 بخلاف ما عليه النظم القرآني .

(١) الآية جاءت مستأنفة من بعد الحديث عن القرآن ومنزلته وأنه  
 هدى للمعنيين الذين كشف عن صفاتهم وعاقبتهم ، فكان دافعا للاستشراف  
 الى معرفة اثره على غيرهم من الخليفة فبدأ بمن كان كفرهم صريحا ، وعبر  
 عن كفرهم بالفعل الماضي ( كفروا ) في صيغة التعبير عن أفعال المنقذين  
 بالمضارع ( يؤمنون ، يتفنون .. الخ ) براءة استهلا تشير الى أن هذا  
 الفريق ( حكم بكفرهم دائما حكما نفذ ومضى ، فستروا ما اتهم من الأدلة على  
 الوجدانية عن العقول التي وهبت لا دراكه ... وداوموا على ذلك بما دل  
 عليه السياق بالتعبير عن اضدادهم بما يدل على تجدد الايمان على الدوام  
 ... وأعله عبر بالماضي والموضع للوصف ( الكافرين ) تنفيذا من مجرد  
 اتقاع الكفر ولو للنعمة .. ومن ثم فإن قوله ( الذين كفروا ) في ول  
 القرآن يوازي قوله ( الكافرون ) في سورة الكافرون .

المهم أن التعبير بالماضي وتقديم كلمة سواء يشير الى معنى الهمزة وام  
 وأنهم قد بلغوا مبلغا لا يجدي معه الانذار ، فهم قد توغلوا في الكفر توغلا



منه معنى . . . ومعنى الاستفهام من الهمزة هـ أم ، أو انسلخهما  
 عن الاستفهام . . . فبذلك يتبين . . . دلالة طائفة ؟  
 بمعنى . . . يقول السيد الشريف . . . انهما قد انسلخ عنهما ههنا  
 . . . معنى الاستفهام اسماحا تاما بحيث لا تبقى منه بقية منهما  
 . . . بل ان دلالة على أحد الأمرين ، وصارتا لمجرد معنى الاستواء  
 . . . من نفس اللفظ لمعنيين فـ قد يجرى لأحدهما ويستعمل فيه وحده كما  
 في صيغة النساء ، فأيها ثابت ، للاختصاص الفدائي . فجردت لمطلق  
 الاختصاص . (١) .

حتى إذا أن الهمزة وأم فيهما معنى الاستفهام ومعنى استواء  
 ما بعد الهمزة وما بعد ( أم ) في العلم بوقوعهما وصحته حينما دنا في  
 هذه الصورة . فأيضا لمجرد استواء ما بعد الهمزة وما بعد ( أم ) في صحة  
 وقوعهما من غير استفهام واعتبار علم وأخبر عنهما بأدستو . . . عدم  
 النفع . فليس الاستواء فيهما مطلقا ، بل استواء في  
 (٢) .  
 وكان تقديم كلمة « سواء » هنا ، وقد أعربت خبرا عن . . .  
 من قبيل براءة الاستهلال .

نص المحققين على تجرد الهمزة وهي أم الباب و . . .

من وصل في العبد انه لو شاهد الملك جل جلاله . . .  
 بهذا الاستفهام اللفظ يصور لنا مبلغ ما وصل اليه الملك من عت ، منهم  
 لو صاروا - فرضا - في مقام المكاشفة يشاهدوا الحق عز وجل . . .  
 لأنهم لم يندبرهم ، لما آمنوا بانك مرسل من عند الله . . .  
 مسكوت انذارنا بل نحن قوم مسحورون .

طه الخاني : نظم الدرر ج ١ ورقة ١٧ مخطوطة . . . تفسير .

(١) السيد الشريف : حاشية على الكشاف ج ١ ص ٢٣ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٥٣ .

الاستفهام في هذه الصورة : صورة التسوية . يؤكد أنها وما شاكلها من  
 الاستفهام في معنى آخر . الاستفهام لا تتجرد . تتساج  
 من الاستفهام . فلهذا لما كان دافع قوى لامتصاص الهمزة في هذه  
 الصورة . فمعناها معنى آخر واستلحاقها عن الاستفهام واعتبار  
 معنى . فلهذا معنى في الهمزة وأم دون معنى الانكار أو التقرير  
 في الهمزة لا يقوم وجهها لسفرها بالاختصاص . بل اعتبارها أقرب إلى  
 الأخذ بعدم التجرد مع المعاني الأخرى .

دلت . يمكن أن يذهب إليه ذاهب في توجيه افادة أدوات الاستفهام  
 مع محتلة مباشرة . وأفضل منه عندي أن يكون افادة أسلوب الاستفهام  
 بهذه المعاني من قبيل مستتبعات التراكيب ذلك أننا لا نأخذ تلك المعاني  
 من حق الأداة . بل من انفرد في كل عنصر من عناصر التركيب . من  
 حيث هو مادة . وتشكيلا . وجرسا . ومن حيث موقعه . وعلاقته ببقية  
 العناصر . وسياقه وملايساته وقرائنه كل ذلك ذو حركة فاعلة في استنباط  
 تلك المعاني واستنباطها من التركيب كله .

### اقلاع السفين :

مضى أن المعاني المستفادة من أسلوب الاستفهام القرآني كثيرة  
 من داخله تستعصى على الحصر والاحاطة ، والتحصيد والفصل ، غير أن  
 القلب الدكي والحس الرفيع قد ير على الوعي بقسمات الحسن وملاحه  
 ومخاييه وإن نجر المنطق والبيان عن كشفها وتعريتها لمن ومن .

لتأخذ موله تعالى : « تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم  
 تتلون الكتاب . أفلا تعقلون » ( البقرة / ٢٤ ) تجد الهمزة قد دخلت على  
 قوله « تأمرون ... » وجلى أن ذلك لا يصلح أن يكون مناط الاستفهام  
 بالهمزة ، فوجب قرنه بقوله « وتنسون أنفسكم » ثم يزداد المعنى نداء



وهذا يتدفق المعنى من « وأنتم تتلون الكتاب » بهذا يتدفق المعنى من التركيب كله لينبثق من الهمزة هيغل ان الهمزة عند أمادت تقريرهم بما تقتضيه آلتهم . وتتلوى عليا فلو بهم بالتوبيع لهم على ايقاعه وهم من هم — والتعجيب من حالهم الذي لا يستقيم مع ما هم عليه من تلاوة الكتاب ، فقد كانوا — أجبار يهود — يأمرؤن من نصحوه بالصدقة ولا يصدقون . واداموا أموال الصدقات لكي يقسموها في مستحقها طنوا غيها واكنزوها لأنفسهم . وقد هذا اليوم حذوهم قوم نسبوا بي نعم في عسرت . ولعل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون لا تشعون » خبر ممت عند الله أن يقولوا ما لا يفعلون » ( الصف ٢ - ٣ ) يؤكد ذلك المعنى .

واذا تحدثنا في الافعال الداخلة عليها الهمزة أنفينا أتينها بصيغة المضارع ( تآمرؤن — تنسون — تتلون ) وان كان ذلك قد وقع منهم من قبل نزول الآية . وجه هذا أنه يفهم منه الديمومة وكثرة التلبس بالفعل نحو قولهم : زيد يعطى ويمنع .

وعبر عن ترك أنفسهم بالنسيان مبالغة في الترك فكانه لا يجرى لهم على بال . وعن النسيان بالأنفس توكيدا للمبالغة في الغفلة المفرطة (١) ومما يزيد هذا التفريع والتبكيك والتسفيه والتجهيل لهم والتحذير لعلماء هذه الأمة من أن يحذوا حذوهم قوله : « وأنتم تتلون الكتاب » الدال على تتابع القراءة في هذا الكتاب واستطالة النظر الأمر المستوجب حسن استرشاد به ، التزام بما فيه من هدى ، « ولا يخفى ما في تصديرها بقوله وأنتم من التبكيك لهم والتفريع والتوبيخ لأجل المخاطبة » (١) .

(١) أبو حيان : البحر المحيط ج ١ ص ١٨٢ .

والمعجزة من معجزات الأنبياء، فكل من آمن على شاكلتهم عن  
 هذه الآية، فإنه لا بد من أن يكون منهم من يعرف أن المعنى بذلك  
 هو أن الله تعالى لا يهدي القوم الظالمين، فيكون مدعى أن يرعى  
 بعد حين فيبقي عطاء الاستفهام في الآية متجدا كلما تليت .

ولما كان أمران تلك الأحداث مما لا يطاق ولا يقره عقل وان ضل  
 من أمر ذلك مريبها أنى من سابقه وأخفى فقال ( أفلا تعقلون )  
 بمعنى من أنفسكم نقبح ما أقدمتم عليه حتى يحدكم استقباله عن  
 رسالته . ثم في ذلك مدحوبو العقول لأن العقول تأباه وتدفعه « (١)  
 فلا يفهم في الآية كما ترى عجز عنه السسباق وقرائن الأحوال  
 من منكرة مدخله . فبصرت فيه تقريرا وانكرا . وتوبيخا وتقريعا  
 وتجييلا ونعجيبا . وكثفا لصلاتهم وتحذيرا من سلوك نهجهم وتنبيها  
 على مكن نداء عيهم . وتصوير مفارقة ما بين فعالهم وحالهم . الخ .  
 لن تستطيع أن تطعم من هذه العطاءات شيئا إلا إذا تبصرت  
 الآية كتب وجهيها . ونفريست في كل عنصر مادة وتنكيلا ومقاما واعتلاقا .  
 ولناخذ قوله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم  
 مثل الذين خبوا من قبلكم . مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا حتى  
 يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله . إلا أن نصر الله قريب »  
 ( البقرة : ٢١٤ ) .

وتأمل ذلك عنصر فيه وتفرس ملامح الجمال المعجز في بنيته في  
 ضوء استحصال مقام نزولها (٢) . فقد نزلت في غزوة الخندق حين  
 كان ما كان من جهد وابتلاء يصوره قوله تعالى : « واذا زاغت الأبصار

(١) الزمخشري : الكشف ج ١ ص ٢٢٧ ، البحر المحيط لابن حبان

١٨٣ « ١٨٤ »

(٢) الواحدى : أسباب النزول ص ٤٠ ( مؤسسة العلي ) .



ويُنْعَبُ الْقُلُوبَ ، الْحَنَاجِرَ وَتَضَعُونَ بِأَلْفِهِ الْظُنُوبَ هَذَا ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ .  
وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا » ( الْأَحْزَاب : ١٠ - ١١ ) •

أول ما يبتلىك هنا قوله تعالى : « أَمْ حَسِبْتُمْ » وأَمْ هنا منقطعة  
تقدر ببيل والهمزة (١) . وهى تشير الى الانتقال من تبيان أن الناس  
مَانُوا أمة واحدة فبعث الله الرسل فاختلف الناس فيهم فهدى من هدى  
وضل من ضل . الى تبيان أن ما كان فى السابقين كائن فيهم لا محالة ،  
وأنهم مثلهم مبتلون . بل وأشد منهم ابتلاء ، متى كان الابتلاء على  
قدر النقاء . وأمته صلى الله عليه وسلم خير أمة أخرجت للناس فلتكن  
أشد الأمم ابتلاء أخذًا بيدها على مدارج الاجتباء « هَذَا ابْتَلَى  
الْمُؤْمِنُونَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا » •

التعير بالفعل « حسب » (٢) • يوحى بخطا ما خيل اليهم الا  
يغفروا من بعد أن غالوا آمتا ... كما نتقن الذين من قبلهم ، وذلك شأن  
الفعل ( حسب ) فى النظم القرآنى غالبا ان لم يكن دائما (٣) •

الاستفهام المستفاد من ( أَمْ ) المنقطعة : المقدرة ببيل والهمزة •

(١) ابن يعيش : شرح المفصل ٨ ص ٩٨ •

(٢) حسب بكسر السين فى الماضى : فعل من افعال القلوب اخوات  
ظن ، وى مضارعه وجهان كسر السين وهو اجود وفتحها وهو اقيس ،  
وفد قرئ بهما فى المشهور • ومصدره الحسبان بكسر الحاء ، واصله من  
الحساب بمعنى العد ، فاستعمل فى الظن تشبيها لجولان النفس فى  
استخراج علم ما يقع بجولان البدن فى الاشياء لتعيين عددها ، ومثله فى  
ذلك فعل ( عد ) بمعنى ( ظن ) • ينظر التحشير والتنوير للظاهر ابن  
عاشور ٣/٣١٤ •

(٣) فم . دراستنا ( التماسب القرآنى ) للدكتوراه المسجلة بمكتبة  
كلية اللغة العربية دراسة لوجه المفارقة بين الفعل ( ظن ) والفعل  
( حسب ) فى النظم القرآنى انتهى بنا لاستقراء الناقص الى ما ذكرناه هنا





أو بهذا التقرير الاستفهام بمعنى هل الله عليه وسلم بما  
 منه فعالم على النسخ وهل الاثنان بما هو خير من المنسوخ  
 وبما هو منه ، لأن ذلك من جهة الاستفهام تحت قدرته سبحانه  
 وهو لا يريد الا التقرير ، فلم يتجرد الاستفهام عن المعنى الآخر بل  
 تضمنه . (١)

وذكر في الاستفهام على حرف النفي ترك الوجه الأخف في النقص .  
 وذكر في النسخ ، وترك الاصل وعدل الى الترخ ، علم انه لم يفعل ذلك .  
 وذكر في من رآه بعد النفي اد يفعل فعل من يعقده فلذلك بدأ بحرف  
 النفي فتقول للعاصي : اليس الله يراك ، لا مستفهما ولكن مقورا ومرهبا .  
 وقد فعل فعل من يظن انه لا يراه ، فلذلك بدأ بالنفي كالمستفهم عن النفي .  
 وهو لا يريد الا التقرير ، فلم يتجرد الاستفهام عن المعنى الآخر بل  
 تضمنه . (٢)

نظر أماني السهيلي ص ٤٩ تحقيق : محمد ابراهيم البنا (ط) ١٣٩٠ هـ  
 سبب كما ترى بدأ بتوجيه الانكار وانتهى الى التقرير بما يعزز أن المال  
 واحد . وان اختلفت جهة النظر في كل . ومن ثم ترى ابن هشام الانصاري  
 بعث الى ان الاستفهام في قوله تعالى ( ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير )  
 ان في في لم يعلم أيها المذكر للنسخ .

ابن هشام كما ترى اقام مذهبه على ان الخطاب لمنكري النسخ لا لله  
 صلى الله عليه وسلم . وما ذهب اليه ابن هشام صاحب هزيل . ولا سيما  
 من نظر الى الالتفات من خطاب المفرد الى خطاب الجماعة في ومالك بن  
 زيد الله من ولي ولا نصير .

القول بان الهمزة في هذه الآيات للتقرير متعين اذا كان الخطاب  
 الى عام ( للمسلمين صلى الله عليه وسلم او لاحد من المسلمين ، وهو مذهب  
 الجمهور في جماعته . وان كان الخطاب لجنس الكافر الجاحد لقدرة الله  
 عدم العلم وان كان مع الكافر المعاند بلسانه فقط ، فيصح ان يكون  
 استفهام انكار وتكذيب اهم فيما يتضمنه كغيرهم من قولهم ان الله تعالى ليس  
 كذلك . ( عروس الافراح ص ٢٥٧ ص ٢٩٧ .

(١) ارشاد العقل السليم ص ١٤٣ .

وفي رواية من حديث الجماعة في رواية : « من خير من ربكم »  
 ورواه الشيخان في مسندهما ( المصنف ) انه ما من خير من يعلم  
 ما لا يعلم الله عز وجل . وفيه ايضاً - ايضاً - الى  
 من امته - صلى الله عليه وسلم - بانه مقصود  
 من الشهادة « ومن يكتمها فانه آثم قلبه » .

والمعنى من صدر المصنف نفسه في « منسج - نفسه - نفع »  
 في ما من صدر يعلم في الذات الالهية . الجامع لكل الصفات  
 من نفسه . معار بانه ليس متصفا بالقدرة وحدها بل بكل الكمالات ،  
 من ان لا يحد بحد الله ، كان لزاما الاقرار بقدرته الشاملة . فيخلق  
 بغيره من لا يحد ما يحير الشيء في وقت مصلحة ، وفي وقت آخر  
 بفسدة لحكم ومصلح دبرها .

ثم نوره بجمال قدرته على كل شيء ، كان بديعا التقرير من بعده  
 بكمال الاستبلاء على كل شيء . فقد يكون المرء قادرا على شيء غير  
 مستول عليه .

فجاء قوله ( الم تعلم ان الله له ملك السموات والأرض ) فكان  
 كالدليل على شمول قدرته .

« قال الحرالي (١) فهو بما هو على كل شيء قدير يفصل الآيات ،  
 وهو بما له ملك السموات والأرض يدبر الامر . انتهى » (٢) .

(١) هو ابو الحسن علي بن احمد بن الحسن الحرالي ( ت ٦٢٧ هـ )  
 له تفسير القرآن الكريم وكتاب مفتاح الباب المغفل ، وشرح الاسماء  
 الحسنى . وشرح اسماء المصطفى صلى الله عليه وسلم ورسالة الاسفافية  
 وراجع ترجمته في ميزان الاعتدال للذهبي ١١٤/٣ ، ولسان الميزان  
 لابن حجر ٢٩٤/٤ .

(٢) البغافى : نظم الدرر ج ١ ورقة ١٠١ ( مخطوط ) ( رقم ٢١٣  
 تفسير دار الكتب ) .



هو تقرير له صلى الله عليه وسلم أولا ولكل نال لها من بعده  
بعضه باسميلاء الحق عز وجل على ما في السموات والأرض يملك أمورهما  
ويصرفها كيف يشاء • فينسخ من تشريعاته ما شاء بما شاء •

بناءً قوله « ان الله له ملك السموات والأرض » على هذا النهج  
دون التعبير بالفعل « يملك » ودون قوله ( ان الله ملك • ) لأن التعبير بالفعل  
لا يفيد الثبوت والاستقرار الذي هو روح الاستيلاء بل يفيد التجدد  
والحدوث ، وذلك غير لائق بالسياق وبحقيقة ملك الله عز وجل •  
وما عليه النظم من جعل الجملة المكونة من خبر مقدم ومبتدأ  
مؤخر خبراً عن لفظ الجلالة ، مفيد لتأكيد اسناد ملك السموات والأرض  
له ، لتكرر الاسناد ، كما لا يخفى •

وقوله ( ألم تعلم ان الله له ملك السموات والأرض ) اما أن يكون  
تكريراً للتقرير الأول في ( ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير ) وأعادته  
للاستشهاد بعلمه صلى الله عليه وسلم • وعلم من كان على هديه على  
قدرته على النسخ ومن ثم لم يعطه عليه • وفيه اشعار باستقلال العلم  
بكل منهما وخفايته في الوقوف على ما هو المقصود • فلو عطف لأشعر  
أن التقرير متوقف على الجمع بين العلمين ، وما توقف على العلم بأمر  
اسمى مما توقف على العلم بأمرين •

واما أن يكون التقرير الثاني مستقلاً عما قبله ، فيكون الأول  
للاستشهاد على قدرته على النسخ والآخر للاستشهاد على اقتداره  
المستولى على جميع الأشياء الأول على سبيل التضمن والآخر على سبيل  
اللزوم •

المهم أن الجملتين تضمنتا « التقرير على الوصفين اللذين بهما  
كمال التصرف • وهما القدرة والاستيلاء على ذلك الشيء • فينفذ فيه  
ما يستطيع أن يفعل • فاداً اجتمعت الاستطاعة وعدم المانعية كمل بذلك  
التصرف مع الإرادة •

وبدا بالتقرير على وصف قدره لأنه أخذ من وصف الاستيلاء  
والسلطان « (١) » .

وبما قرره أنه القادر على كل شيء . المائل لما في السموات  
والأرض . أن كل ما في الكون وعلى رأسه الفلك ليس لهم من دون  
الله من ولي ولا نصير (٢) . وكان في تأييد هذا التفات من خطاب المفرد  
المتنزل في سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم إلى خطاب الجمع المقيد  
لعموم شخصين بيننا في أول ما مع مضمون هذه الجملة . ومع قوله « من »  
دون الله « ذلك » أن المنفى بدخول « من » عليه صار نصا في العموم  
فناسب كون المنفى عنه يكون عاما أيضا . كان المعنى . وما لكل فرد منكم  
فرد فرد من ولي ولا نصير « (٣) » .

وفي ذلك تعريض بالتحذير للذين آمنوا . ولم يبلغوا درجة المؤمنين  
من محاجة أمره إذا حكم عليهم بما أراد نكثت من كان لئلا تلقى بواسطتهم  
من اليهود ندوا مما لقيت ذواهر السقطة بأن يستمسك بسابق فرقانها  
فينتقل عن قبول لاحقه ومكمله ، فيكون ذلك تبعا لكثرة أهل الكتاب في  
آياتها بنسخ ما لحقه التغيير من أحكام في كتابها . أفاده الحراني (٣) .

وبما حمىهم على الاقرار بالعلم بأنه على كل شيء قدير وإن له  
ملك السموات والأرض وأنه ليس لهم من دونه من ولي ولا نصير .

(١) أبو حيان : البحر المحيط ج ١ ص ٣٤٥

(٢) الفرق بين الولي والنصير أن الولي قد يفسد عن النصرة .  
والنصير قد يكون اجنبيا عن المنصور فيكون بينهما عموم من وجه ( انوار  
التنزيل ٢٢١/١ ) .

(٣) ١ حيان : البحر المحيط ج ١ ص ٣٤٥

(٤) المقامى : نظم الدرر ج ١ ورقة ١٠٢ ( مخطوط ) رقم ٣١٧

تفسير بدار الكتب المصرية



ولا سيما عند الكفرة ، وكان ذلك الحمل مقتحيا منهم العمل بموجب ما أقروا به ولا سيما الترفع عما تردى فيه من كانوا قبلهم من ضلال واختلاف من بعد ما جاءهم البينات . وكان أهل الكتاب الضاعين في النسخ مد سألوا موسى عليه السلام ما لا يليق بالله تعالى أولا وما لا يليق بهم كامل كتاب ثانيا . وكان من المسلمين من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجعل لهم ذوات أنواع ..... الخ فاسب ذلك كله الانتقال من حملهم على الاقرار بالعلم الى حملهم على العمل به والى الانكار على من تبدل به غيره وسلك سبيلا سواه والى الايحاء بالثقة به سبحانه فيما هو أصلح لهم مما يتعبدهم وينزل عليهم ، وان لا يقترحوا على رسولهم ما اقترحت آباء اليهود على موسى عليه السلام من الأشياء التي كانت عاقبتها وبالا عليهم (١) .

فجاء قوله : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم ..... الخ ( أم ) هذه اختلف المفسرون فيها : أمصلة أم منقطعة ؟

ذكر البيضاوى الوجهين مقدما انقول بالاتصال بما يفيد اختياره وجعلها معادلة للهمزة في ( ألم تعلم ) أى ألم تعلموا أنه مالك الأمور قادر على الأشياء كلها بأمر وينهى . كما أراد أم تعلمون وتقترحون بالسؤال كما اقترحت اليهود على موسى (٢) .

فهو يؤول « أم تريدون » بأم تعلمون لأنه لا يقترح المقترحات الشاقة الا بعد العلم بأن له ربا قادرا على اجابة سؤاله فالمخاطب عنده في « ألم تعلم » . « أم تريدون » ليس الكافر وقد اعترض عليه بأن

(١) الكشف ج ١ ص ٣٠٣ . انوار العقل السليم ج ١ ص ١٤٤

(٢) انوار التنزيل ج ١ ص ٢٢١ .

الفاعل في ( .لم ) غيره في ( يريدون ) . والفاعل في ( .لم )  
لما بعد الهمزة غير مغاير للفاعل لما بعد ( أم ) ( ١ ) .

ولعل البيضاوي لا يرى المغاير بالامفراد . ومع ذلك  
فبيل واحد . عزوة على ان الاعتراض بالانفراد .  
مسلماً فقد نعت على أن أم متصلة في قول الشاعر :

وما أبالي أنب بالحزن تبس أم لحاني بظهر غيب لئيم

### مع اختلاف الفاعلين ( ٢ ) .

وقد وجه العلامة عمر الفارسي ( ت ٧٤٥ ) صاحب الحنف على  
اكتشاف اتصال ( أم ) بأن ( ألم تعلم ) محمول على النقطة . و ( أم )  
تريدون ( أخ الدال على الاقتراح المتأخر للثقة معادل له كأنه قال :  
اتقون بعد العلم بما يوجب الوثوق أم لا تثقون وتقرحون كما اقترحت  
أسلاف اليهود . وهو حمل على الثقة على سبيل المبالغة . كما في قوله  
تعالى : « فهل أنتم منتهون » وهذا كما تلخص للمسـترشد طريقي  
اخير والنـر . وما فيهما من المصالح والمفاسد . ثم تقول له : أهذا  
تختار أم ذلك .

والى منه ذهب الامام البقاعي . ولعله انتفع بما قاله عمر الفارسي  
يقول الشيخ : « ( أم ) أي أتريدون أن تردوا أمر خالقكم في  
النسخ أم تريدون ( أن ) تتخذوا من دونه الها لا يقدر على شيء بأن

( ١ ) الشهاب الخفاجي : عناية القاض ج ١ ص ٢٢١ ( على هامش

البيضاوي ) .

( ٣ ) ينظر رساله شرح حقيقة الاستفهام لابن هشام ص ٤٩

( ضمن كتاب الاشياء والنظائر للسيوطي وهذه الرسالة منها نسخ  
مخطوطة منسوبة لابن طوالة عن الامام يشرح حقيقة الاستفهام ( في  
دار الكتب المصرية ) .





ما كان منهم ، ولولا أن كتب الله إلا معدومهم ، فدمهم ، حملة الله العالمين ،  
 - صلى الله عليه وسلم « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ( ٢٣ )  
 ( ٢٣ ) لأخذتهم الصاعقة مثلما أخذت بنى إسرائيل حين قطع الله لهم  
 جبهة « ، وفي هذا تبيان لفصل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن  
 أمته ، وأنه الأمان الأعظم لمن كان في صحبته وصحبة هديه وسنته .

ومما هو جدير بتدبره ذلك التشبيه البديع « كما سئل موسى من  
 قبل » فقد كان « مقتضى الطاهر أن يقال ، كما سألوا موسى ، لأن  
 المشبه هو المصدر من المبني للمفعول . اعنى سائلة المخاطبين . لا من  
 المبني للمفعول ، اعنى مسئولية الرسول صلى الله عليه وسلم حتى  
 يتسبه بمسئولية موسى عليه السلام ، فلعله أريد التشبيه فيهما معاً ،  
 ولكنه أوجز النظم فذكر في جانب المشبه السائلة وفي جانب المشبه به  
 المسئولية . واكتفى بما ذكر في كل موضع عما ترك في الموضع الآخر » ( ١ )  
 على سبيل الحذف الاحتياكي ( ٢ ) .

ولعل السر في بناء هذه الصورة التشبيهية على نهج الحذف  
 ( الاحتياكي ) هو الإشارة الى أنهم عند الله عز وجل أجل من أن يشبهوا  
 بقوم لعنوا على لسان داود وعيسى بن مريم ، وأن يكونوا معهم في  
 قرن ، وأن صدر منهم ما صدر من بنى إسرائيل تصديقاً لما رواه  
 الامام البخاري في صحيحه في كتاب الاعتصام عن النبي صلى الله عليه  
 وسلم :

- 
- ( ١ ) ابو السعود : ارشاد العقل السليم ١٥ ص ١٤٤ - ١٤٥ .  
 ( ٢ ) الاحتياكي لون من ألوان الحذف يسمى عند بعضهم بالحذف  
 التقابلي . وحقيقته ان يؤتى بكلامين يحذف من كل منهما شيء ايجازاً  
 يدل فيه ما ذكر من كل على ما حذف من الآخر ( وقد كتبت فصلاً عنه في  
 دراستي للدكتوراة ( التماسب القرآني ) ) .

« لَتَتَّبِعَن سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شُجْرًا شُجْرًا وَذُرَاعًا ذُرَاعًا حَتَّىٰ لَوْ  
دَخَلُوا جَحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ • فَلَمَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ : الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى •  
قال : فَمَنْ » •

وفي هذا من التوبيخ للسائلين من الذين آمنوا ما تسكب معسه  
العبرات ، وتنفطر له قلوب العارفين ، فليس أعز على الكريم من  
يتقاصر عن حسن الخلق به ، وعما ينبغي أن يكون عليه مثله •

ومما ينمى هذا فيفعم القلب وجلا مما وقع تذييل الآية بتصوير  
كنائى : حيث عبر عن ترك الثقة بالآيات البينات واقتراح غيره ببطلان  
الكفر بالآيمان ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : ومن يفعل ذلك سؤال  
أو تلك الإرادة فقد صل سواء السبيل ، لكنه أخرج على خلاف مقتضى  
الظاهر مبالغه في الزجر بتصوير تلك الإرادة أو الفعل في صورة تبدل  
الكفر بالآيمان التى تنفر منها كل نفس سوية •

وفيه من التهديد على الاقدام على مثله ما يرتدع عنده كل مجترى  
ان فى ذلك لعبرة لمن يخشى •

ما مضى كشف لواقع اليهود وتحذير للمسلمين من التأثير بهم  
والتشبه بفعالهم ، ويأتى استفهام قرآنى آخر يكشف واقع من دخل  
منهم الاسلام نفاقا حين يكون لهم من الولاية على المجتمع الاسلامى  
شئ •

يقول الحق عز و علا : « فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في  
الأرض وتقطعوا أرحامكم • أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى  
أبصارهم • أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » •

( محمد / ٢٢ - ٢٥ )

جاءت هذه الآيات فى معرض تبيان حرص الذين آمنوا على



تلمة الأسلام ونفوا نزول سورة تآمر بالقتال . فاذا ارسلنا  
الذين آمنوا ظمعا في الرضوان . واستسعاد الذين في قلوبهم نفاق فشحذ  
ابصارهم جبنا وعلما بآداب من استسعد الله . فمما  
على سبيل الاعراض عنهم . ثم اقبل عليهم في دمه لايتهم  
والقرر لهم بسوء معانهم والموقف لهم والذين آمنوا  
المنافقين . فقال « فهل عسيتم ... » الحج . الاستسعاد  
يدخل على خبر للسؤال عن مضمونه . وعسى انشاء (رجاء) عند  
تأويل الانشاء بالخبر فيكون المعنى فهل يتوقع منكم الافساد وتقطيع  
الأرحام ان توليتم .

الموقع (بالكسر) هنا كل من يقف على حالهم لا الله تعالى اذ لا يصح  
ذلك منه تعالى عن ذلك علوا كبيرا . أى انهم لما عهد منهم سوء الطوية .  
كانوا أحقاء أن يتوقع منهم كل من داقهم وخبر رخاوة عزمهم وعقدتهم  
في الايمان أن يفسدوا في الأرض ويقطعوا الأرحام ان تولوا (١) .

الاستفهام هنا مفيد للتوبيخ والتفريع والنسفيه وكشف سوء  
الطوية . والتنبية على مكنم الداء ، والنحذير من افساح الطريق لهم  
ولأمثالهم الى الولاية .

وتوليتم ، يحتمل هنا أن يكون من الولاية ، وأن يكون من الاعراض  
على الوجه الأول : المعنى على نوبيخهم على أنهم على حال يتوقع كل من  
عرف أمرهم افسادهم وتقطيع الارحام ان تولوا أمور الناس .

يقوى ذلك الوجه قراءة يعقوب توليتهم (٢) « أى أن تولاكم ظلمة  
خرجتم معهم وساعدتموهم في الافساد وقطيعة الرحم » (٣) .

(١) الكشف ج ٣ ص ٥٣٦ ، عناية القاضى ج ٨ ص ٤٨ .

(٢) أى بالبناء لما لم يسم فاعله .

(٣) لميضاوى : ١٢٣ ، التبيين ج ٨ ص ٤٨ .

فقراءة الجماعة لتبيان حالهم اذا ما كانوا الولاية . وقراءة يعقوب  
ليبيان حالهم اذا ما ولى عليهم غيرهم .

أما الوجه الثانى من تفسير ( توليتم ) بمعنى الاعراض عن الاسلام  
فلا حاجة اليه اذ الخطاب للذين فى غلوبهم مرض . وهم المنافقون علاوة  
على « أن الواقع فى حيز الشرط فى مثل هذا المقام لابد أن تكون محذوريته  
باعتبار ما يستتبعه من المناسد لا باعتبار داته . ولا ريب فى أن الاعراض  
عن الاسلام رأس كل شر وفساد . فحقه أن يجمل عمدة فى التوبيخ  
لا وسيلة للتوبيخ بما دونه من المفسد » (١) المهم أن الاستفهام بهل  
هنا الداخل على ( عسى ) المترعة بفيض من التوقيع المستحيل الى حقيقة،  
هذا الاستفهام لم يأت على هذا النهج الا فى هذه السورة ، وفى سورة  
البقرة ( قل هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا ) .

فرق ما بينهما أن خبر ( عسى ) فى سورة البقرة منفيًا ( الا تقاتلوا )  
أى المتوقع عدم القتال ، وقد تحقق ما كان متوقعا « قالوا لا طاقة لنا  
اليوم بجائوت وجنوده » ( البقرة / ٢٤٩ ) .

وخبر ( عسى ) فى سورة محمد — عليه الصلاة والسلام — مثبتا  
( ان تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم ) وقد استحال اليوم ما توقع  
الى حقيقة واقعة . وما هو ذا ما يجسم بكله على حاضرنا الاسلامى  
يؤكد تحقق ما قررت ( هن ) توقعه ( بعسى ) .

فقه هذا البيان القرآنى فى آية سورة ( محمد ) عليه الصلاة والسلام  
فى ضوء مجريات الأحداث فى المجتمع الاسلامى يقرر حقيقة فادحة هى  
أن هذا الفساد فى أرض الاسلام وتقطيع أرحام المسلمين على مستوى

(١) ابو السعود : ارشاد العمل السليم ص ٨٠ ص ٩٨ .

الشعوب والحكومات . انما مرده ان ولاه الامم من دين حاضهم  
الحق عز و علا بقوله « فهل عسى يتم ان ندائم ... » ادس ...  
اولا بانهم في قلوبهم مرض وحكم عليهم احرا ... « اه ... »  
لعنهم الله ..... » .

لن يستقيم حال المجتمع الاسلامي ولن تصح الحرب اوزارها فيه  
الا اذا استبدل الولاة الايمان بالمرض المسنري في قلوبهم او دن الولاة  
غير الولاة . كانوا من الذين آمنوا — على الاقد — ودك ما يتصلح ليه  
في توق بالغ كل مسلم .

والمهم ان الحق قد قضى على أولئك باللعنة فأصمهم وأعمى أبصارهم  
فلم يدع بهم سبيلا للهدى والتفكر ، ثم رتب على ذلك الانكار عليهم في  
عدم تدبر القرآن ، فقال « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفلها » .  
همزة الاستفهام داخله في ظاهر اللفظ على ( الفاء ) ومذهب سيبويه  
والجمهور في هذا أن الهمزة مقدمة من تأخير وحققها أن تؤخر عن الفاء ،  
غير أنها خدمت لانها أم أدوات الاستفهام والاستفهام له الصدارة ،  
فأعطيت حن التصدير على أدوات العطف من دون بقية أدوات  
الاستفهام (١) .

ومذهب الزمخشري والزمكاني والبقاعي وغيرهم أن الفاء عاطفة  
ما بعدها على مقدر داخل في حيز الهمزة (٢) ، ولعل الذي دفع بالزمخشري  
وتابعيه الى تقدير المعطوف عليه وجعله مدخول الهمزة ، اتقاء عطف  
الانشاء على الخبر . غير ان الاستفهام هنا ليس محضا بل هو انكارى

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٣٢٣ ، البرهان للزركشى ٢/٣٥٠ والمعنى

لابن هشام ج ١ ص ١٤ .

(٢) الكشف ١/٢٩٤ ، البرهان ٢/٣٥٠ - ٣٥١ .



أدرا استفهام مشوب بمعنى خبري ، فيجوز فيه معنى الطلب (١) .

وما ذهب إليه هنا أن القاء عاطفة توبيخهم على عدم تدبر القرآن  
على موبيتهم ونقريتهم على توقع الفساد في الأرض وقصع الأرض  
أن تولوا أمر المسلمين والاعتلاق بين عدم التدبر في القرآن وبين  
فسادهم .... بالغ الوثامة ، فكان جديرا بالعطف بالفاء .

وهمزة الانكار هنا داخلة على النفي مع بقائه على حاله  
فليس هو على نهج ( أليس الله بكاف عبده ) .

انفى هنا لم يستحل بدخول ( الهمزة ) الى انبت كما التبان في  
سير من هذا ، وهو على الرغم من ذلك ليس نادرا في لغة العرب (٢) المحم  
أن الانكار انوبيشى هنا منصب على عدم تدبرهم القرآن .

(١) ولعل هذا لا يصب الفعل المضارع بعد الفاء في جـ راب  
الاستفهام غير المحض ، كما في قوله تعالى « قال يا أوليتا أعجزت أن اكون  
مثل هذا الغراب فاواري سوءة أخى » .

الفعل اواري منصوب لعطفه على ( اكون ) لا على أنه في جواب  
الاستفهام في أعجزت كما زعم الزمخشري . لأنه لا يستقيم لأمرين : الأول  
أن الاستفهام ليس محضا فهو متضمن التعجب .

والآخر أنه ليس المعنى أن يكون منى أعجز نموارة ، الا ترى أن قولك :  
اين بيتك فازورك . معناه : لو عرفت لزرت . وليس المعنى هنا : او أعجزت  
لو اريت .

ينظر : الكشف ٦٠٨/١ ، الاملاء للعكبري ٤١٣/٢ ، ارشاد العقل  
السليم ٢٨/٣ ، نظم الدرر للبقاعي ج ٢ ورقة ٢٩ .

(٢) جاء على هذا النهج قول الأعشى :  
الم تفتن عيناك ليلة امدا  
وقول البحتري :  
وبت كما بات السليم مسه هدا

« وأصل التدبر التفكير في عاقبة الشيء » وما تفعل اليه  
وتدبر القرآن لا يكون إلا مع حضور القلب ، ولا يشترط فيه  
ويشترط فيه تقليل الغذاء من الحلال الصاف وحلوص النية » (١) •

وأم في قوله « أم على قلوب أمسكت بها سمعاً »  
مقدم مقتضيه على معنى ( أملاً يتدبرون القرآن )  
من موطن وتروجر حتى لا يجسروا على المعنى أم ، من حيث  
لا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر (٢) •

وذلك بناء على جعل قوله « على قلوب أقفالها » تمثيل لعدم وصول  
التدكير وانكشف الأمر فكان بهذا المعنى معادلاً لما قبل ( أم ) فدانه  
قيل : أفلا يتدبرون القرآن إذا وصل اليهم أم أم يصل اليهم •

وهذا على مذهب من لم يشترط أن يكون ما بعد أم مفرداً أو جملة  
فعنية متحدة المعنى مع ما قبلها ، بل يجوز أن يكون ما بعدها جملة اسمية  
مكونة من مبتدأ وخبر (٣) •

أو لم علمك ابن أيوب الندي ويعرك منه فصل ما يعبر  
الهجاء في بيت البحتري يمنع من جعله اثباتاً للتعليم ، بل هو على  
نفاذ النفي بلم على حاله ، والانكار التوبيخي على عدم التعلم •  
ومنه قول المتنبي :

قالوا ألم تكنه ، فقلت لهم ذلك على إذا وصفناه  
هم أرادوا استفهامه عن ترك الكنية ولم يريدوا أنه قد كناه •  
نظر : عبث الوليد لابي العلاء ص ٢٢١ - ٢٢٢ ، شرح المشكل من  
أبيات المتنبي بن سدة ص ١٤٧ •

(١) أنوار التنزيل ص ٨٠ ص ٤٨ •  
(٢) ابن هشام : رسالة ط • حقه الاستفهام الاشياء والنظائر •

وأكثر المفسرين على أن ( أم ) هنا منقطعة مقدرة ببل والهمزة (١) بل للانتقال من التوبيخ بعدم التدبر الى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر ، وهمزة التقرير للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يوصل اليها ذكر (٢) وتنكير القلوب اشارة الى أنه يشمل قلوبهم وقلوب من هم بهذه الصفة وتهويلا حالها وتفضيع شأنها ببيهم أمرها في القساوة والجهالة ، كأنه قيل على قلوب منكروه لا يعرف حالها ولا يقادر قدرها في القساوة .

واضافة الاقفال الى ضميرها اشارة الى أنها اقفال مختصة بها (٣) وهي اقفال الكفر التي استغفلت فلا تفتح فهي لا تجانس الاقفال المعهودة وقوله ( أم على قلوب أقفالها ) يفيد أن وسيلة التدبر في القرآن ليس الفعل وحده . بل الوسيلة الرئيسية في ذلك القلب وهذا يؤكد ما ذهب اليه من أن علوم اللغة وغيرها مما تحصله العقول ليس بكاف لتأهيل أحبارها لأن يكون من أهل التدبر في القرآن ، فان ثمت أمورا أخرى لا يكون التدبر بدونها ، أشرت اليها في دراسة أخرى (٤) .

وقد يأتي الاستفهام كاشفا عما يعتمل في نفس قائله في موقف ما ، وذلك ما نراه في حوار بين فرعون وسحرته يقصه الحق عز وعلا في سورة الاعراف بقول تعالى : « وجاء السحرة فرعون ، قالوا أ ان لنا لأجرا ان

(١) الكشف ٣/٣٥٦ ، البحر المحيط ٨/٨٣ ، ارشاد العقل السليم ٩٩/٨ .

(٢) الكشف ، ارشاد العقل الموصفين السابقين .

(٣) الكشف ٣/٥٣٦ ، انوار التنزيل ٨/٤٩ ، ارشاد العقل السليم ٩٩/٨ . تفسير القيم لابن القيم ص ٤٣٩ .

(٤) راجع ان احببت لدراستنا ( لغة لتعبير القرآني ) المنشورة في حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية ، سنة ١٩٨٤ م .



كنا نحن الخالبيين • قال نعم • وادرم من العربى • ( ص ١١٣ - ١١٤ )  
 قوله ( وجاء السحرة ) معطوف على قوله • قال • أرجه وأخاه • • • • •

وفى الكلام ايجاز بالحذف صرح بالممدود فى سورة الشعراء  
 يقول « فجمع السحرة لميقات يوم معلوم » ( أى / ٣٨ ) •

وقوله ( ان لنا لأجرا ) قرأ حفص عن عاصم والحرمين : نفع  
 وابن كثير ( ان ) بهمزة واحدة على الخبر • وقرأ الباقر بهزتين على  
 الاستفهام ، وهم على أصولهم من التحقيق والتسهيل وادخل ألف بينهما  
 على ما هو مبين فى كتب القراءات هذا الاختلاف بين القراء السبعة انما  
 هو فى آية الأعراف أما آية الشعراء فقد أجمع السبعة على الاستفهام (١)  
 ولعل هذا الإجماع على الاستفهام فى الشعراء هو الذى جعل أبا على  
 الفارسي يجوز أن تكون همزة الاستفهام فى قراءة حفص والحرمين  
 محذوفة (٢) فيكون الأسلوب استفهاميا على الوجهين (٣) •

(١) راجع شرح الشاطبية لابن القاصح ص ٢٠٧ ، وغيث النفع

للسفاسى ص ١٠٦ •

(٢) البحر المحيط ٣٦١/٤ ، الفتوحات الالهية ١٧٤/٢ •

(٣) حذف همزة الاستفهام ليست محل اتفاق بين العلماء ، فان

النحاس على انه لاخلاف فى انه لايجوز الحذف الا اذا كان فى الكلام (ام)

واجاز الاخفش والقراء الحذف اذا دل عليها دليل وان لم يكن فى

الكلام ( ام ) وجعلنا من ذلك قوله تعالى ( وتلك نعمة تمنها على ان عبديت

بنى اسرائيل ) ( الشعراء ٢٢ ) حيث جعلنا قبل الواو فى ( وتلك ) همزة

استفهام انكارى •

وطاهر الأسلوب يرجع ذل إلى حيث الجواب بقوله ( نعم ) واختلاف  
انقراء في تحقيق الاستفهام وتقديره أو في الاستفهام والحبرية له وجه  
سفسير إليه .

قراءة غير حفص والدرميين ( أ ان لنا لأجرا ) تعطى إشارة إلى  
أن السحرة وانفقون في الانتصار . فليس ما يشغلهم إلا التوسيع نفع  
أنفسهم .

والبقاعى يذهب إلى أن السحرة ساقوا الكلام مساق الاستفهام  
أدبا مع فرعون في طلب الأكرام ( أ ان لنا لأجرا ) فأكدوا طلبا لخراج  
الوعد على حال التأكيد ...

ومن أخبر أراد الاستفهام ... « (١) .

(١) البقاعى : نظم الدرر ٢ ولقة ٢٠٠ ( مخطوط ) رقم ٢١٣ تفسير  
وما قيل فيه بحذف همزة استفهام ( قال هذا ربى ) فقد ذهب  
العكبرى إلى أن ( هذا ربى ) مبتدأ وخبر تقديره ( أهذا ربى ) وكذلك قيل  
فى قوله تعالى ( أفان مت فهم الخالدون ) يعنى أفهم الخالدون وقد حوز  
أن سدة حذف همزة الاستفهام فى قول المتنبي .

من طاعنى نفر الرجال جآزر ومن الرماح صالج وخلاخل  
وكذلك ذهب جماعة إلى ذلك فى قول الكميت ..  
طربت وما شوقا إلى البيض اطرب ولا لعبا وذو الشيب يلعب  
على معنى أذو الشيب يلعب

واستدل الذين الحارون على صحة الاستفهام بأنهم أوجبوا  
تصديرها لتدل ابتداء على انشاء الاستفهام ، فإذا أمن تأخيرها فأولى إزالتها  
بالمرة .

ما قاله البقاعي من أن سوف الناس من أن الاستفهام فيه أدب مع  
 فرعون في طلب الأكرام • غير سديد عندى ولا سيما أن البقاعي قدم  
 لقوله هذا بأنهم قالوا ذلك امرعون عندما كانوا بين يديه سويين •  
 أنفسهم مفهمين له أنهم غالبون لا مانع لهم من ذلك إلا أنهم

قوله « لا مانع لهم ... الخ » يفيدان شيئا من أدبهم معه عند  
 وصفه بعدم الانصاف ، وأنهم يستترخون مسبقا قبل مجازاتهم •  
 وذلك لا يتون الا مع من جرب عليه البخل واشح حتى مع من ينصرونه •  
 فكيف يتناسق هذا مع توجيهه إيرادهم الكلام مورد الاستفهام بالأدب  
 معه في صلب الأكرام ؟ أى أدب هذا بعد أن وصفوه بعدم الانصاف  
 لانصاره وأعوانه على ما قدموا ؟

أضف لهذا أن البقاعي وجه التأكيد في ( ا ان لنا لأجرا ) بأنه  
 نصب اخراج الوعد على حال التأكيد .... أليس في هذا إشارة الى  
 ذمهم فرعون حيث يحتالون للحصول منه على وعد مؤكد ؟ فكيف يكون  
 هذا متلائما مع إيراد الطلب تادبا معه ؟ ألا ترى أن في الهمزة على فهم  
 البقاعي وفي ( ان ) على فهمه أيضا تدافعا ؟ اما استخدام ( ان ) الشرطية  
 في « ان كنا نحن الغالبيين » فإنه لا يتعارض مع ادعاء الثقة في النصر ،  
 ذلك أن بناء الجملة ( ان كنا نحن الغالبيين ) واختيار الفعل « كنا »  
 والفصل بنحن ، والتعبير بالوصف ( الغالبيين ) ينفي أن يكون استخدام  
 ( ان ) الشرطية دون « اذا » لعدم التحقق والقطع • ذلك أن دخول

---

راجع في هذا المغنى لابن هشام ومعه حاشية الأمير ١٣/١ ، البحر  
 المحيط ١١/٧ والفتوحات الالهية ٣/٣٧٥ ، وتفسير ابى السعود ٢٣٨/٦  
 واملأ العكبرى ١١١/٤ وشرح مشتمل ابيات النسي لابن سيده ص ١٠٨ ،  
 والبرهان للزركشى ١٨١/٤ ، وحاشية الشهابية ٣/١٩٥ •



( ان ) الشرطية على ( كان ) يقربها من دلالة ( اذا ) وذلك لقوله دلالة  
( كان ) على المسمى لتمخضه له لان الحدث المطلق الذي هو مدلوله مستفاد  
من الخبر فلا يستفاد منه الا الزمان الماضي (١) •

وقد نص السعد على أنه قد يستعمل ( ان ) في غير الاستقبال  
فيمسا اذا كان الشرط لفظ ( كان ) نحو ( وان كنتم في ريب ) ( وان كنتم  
في شك ) (٢) •

ويمكن أن نضيف الى ذلك أن استخدام ( أن ) هنا في مقام جزمهم  
بوقوع الشرط انما هو للنزول على مقتضى حال فرعون ، فلعله — عليه  
اللعنة — لم يكن جازما بوقوع الشرط ( غلبة السحرة ) من عول ما رأى  
من عصا موسى عليه السلام • وبنى السحرة بقيسة الجملة ( شرطا  
وجراء ) على مقتضى حالهم من الجزم بوقوع الشرط فأستخدموا الفعل  
( كان ) وصمير الفصل ( حسن ) والوصف ( الغالبين ) في جملة الشرط  
وبنوا جملة الجزاء على الاستفهام ليكون أشبه باستدراج فرعون الى  
تقرير الجائزة لهم • فالإنسان مع من يشك في انفاذه الشرط أقل تحفظا  
وحيلة في الموافقة على الجزاء ، بخلافه مع يثق أنه منفذ شرطه ، فأبرزوا  
شرطهم بأداة توحى لفرعون البخيل بعدم الحيطة ولذا لم يكتف فرعون  
بالرد بالايجاب ( نعم ) بل أضاف اليه أكثر مما طلبوا ( نعم وأنكم لمن  
المقربين ) •

ذلك على قراءة الاستفهام ( أ ان لنا لأجرا ) وكذا على حذف  
والحرميين مع تقدير همزة الاستفهام على ما ذهب اليه الفارسي أما  
على قراءة الخبر هنا ففيه إشارة الى أن من السحرة من كان لا يسيء

(١) السعد التفتازاني : المطول ص ١٥٨ •

(٢) المرجع السابق ص ١٦٢ - ١٦٣ •

أبطن فرعون لعدم سبق معرفة ببخله ولعلمهم من سورة غير المبرين .  
 فحسبوا أنه على ديدن الملوك ممداق كريم فأخرجوا طلبهم مخرج الأحياء ،  
 دأله على النقه في وموع المراد من ذلك حرج مصيب في  
 صورة الخبر (١) ولعل أولئك كانوا قلة ، فكان من اختار قراءة القرآن  
 قليل ( حفص والحرميان ) وعلى هذا تكون قراءة الاستفهام ناسرة إلى  
 انكثرة الغالبة من السحرة ، وقراءة الاحبار باطرة إلى تلك القلة من  
 السحرة ، ولعله لما كان ما عليه تلك القلة من حساب غير قويم ولا يليق  
 بحال فرعون أشار إلى ذلك باجماع القراء السبعة على القراءة بالاستفهام  
 في آية الشعراء والتي بنيت فيها القصة على شيء من الإيجاز بخلافها  
 في سورة الاعراف فقد كانت ذات بسطة فكانت محلا للملاحظة حال الكثرة  
 من السحرة وحال القلة منهم . وكان للكثرة قراءة الجمهور وسفه غيرهم ،  
 حفص الحوميين ذلك ما نذهب إليه ولعله على هدى .

وفي حوار آخر بين موسى وآل فرعون والسحرة يحكيه القرآن  
 انخريم في سورة يونس يكون فيه لأسلوب الاستفهام القدر الملقى في  
 أدكاء الحوار وتأجيج الصراع بين الحق والباطل ماذا بأداء الحوار من  
 خلال أسلوب الاستفهام يتخذ طابعا تنغيثيا مصورا لما أفعمت به نفوس  
 المتحاورين من مشاعر متأججة . وكل من ألقى السمع إلى هذا الحوار  
 وهو يتلى من ذي تقى يكاد يستحيل المسموع أمام ناظريه صورة مشخصة  
 تنقله في غياهب الزمن السحيق منذ آلاف السنين .

يقول الحق عز وجل : ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى  
 فرعون وملائته بآياتنا ما تكبروا ، وكانوا قوما مجرمين . فلما جاءهم  
 الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق  
 لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساجدون . قالوا أجبنا لتلفتنا عما

(١) ينظر شروح التلخيص ٢ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

وجدنا عليه اباها ، ونظرون احدهما الذئبية في الارض ، وما نحن لكم  
بمؤمنين ، وقال فرعون ائتوني بك . اسحر عليم . فلما جاء السحرة قال  
لهم موسى اذهبوا ما أنتم بالفون . فلما انقوا مال موسى ، جذم به السحر  
ان الله سيبيطله . ان الله لا يصلح عمل المفسدين ويحيى الحق بآياته  
ولوكره المجرمون « ( يونس / ٧٥ - ٨٢ ) »

في هذا الحوار خمسة استفهامات :

١ - أتقولون للحق لما جاءكم ؟

٢ - أسحر هذا ؟

٣ - أجبثنا لتلفثنا ؟

٤ - ما جئتم به ؟

٥ - آلسحر ؟

جلى أن بعض هذه الاستفهامات ليس في قراءة حفص عن عاصم  
وحتى نكون على هدى من أمرنا يجمل بنا أن نشير الى أشياء ذات أثر  
في وعى عطاءات هذه الاستفهامات قبل ابحارنا في تبج محيطها الجماني .

أولا : قوله : اتقولون للحق .... يحتمل ثلاثة أوجه :

أ - أن « تتولون » على ظاهره ، ومقوله محذوف .

ب - أن « تقولون » على ظاهره ، ومقوله « أسحر هذا » .

ج - أن « تقولون » بمعنى تعييون وتذمون ، فلا يكون في الكلام  
حذف .

ثانيا : قوله : أسحر هذا ؟ يحتمل وجهين :

أ - أن يكون من كلام موسى عليه السلام .

ب - أن يكون من كلام المجرمين .

ثالثا : قوله : « أجبثنا ... » الح استفهام من كلام آل فرعون .



رابعاً : قوله : « ما جئتم به السحر » على أن السحر لا يستعمل فيه باعتبار ( ما ) موصول ، والسحر هنا هو السحر باليد ، التعريف •

وعلى قراءة أبي عمرو « ما » استفهامية ، والمصدر في ( السحر ) استفهامية • « وفي هذه القراءة أوجه :

أحدهما : أن « ما » استفهامية في محل رفع بالابتداء وجئتم به ، الخبر والتقدير أي شيء جئتم به ، أنه استفهام انذار وتقليل للنسيء ، لجاء به ، والسحر بدل من الاستفهام ولذلك أعيدت معه أدواته ، لما تقرر في كتب النحو •

الثاني : أن يكون ( السحر ) خبر مبتدأ محذوف تقديره أهو السحر •

الثالث : أن يكون مبتدأ محذوف الخبر تقديره السحر هو •

الرابع : أن تكون ما موصولة بمعنى الذي ، وجئتم صلتها والموصول في محل رفع بالابتداء والسحر على وجهيه من كونه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ محذوف الخبر تقديره الذي جئتم به أهو السحر ، أو الذي جئتم به السحر هو والجملة خبر ( ما ) وهذا الضمير هو الرابط « (١) • يعطف القرآن الكريم قصة بعث موسى وهارون بالآيات إلى فرعون وملائته على قصة بعث الرسل السابقين إلى أقوامهم بثم الدال على فسحة في زمان البعث غير أنها لا تستغرق زمان البعد بما أشار إليه ادخال الجار ( من ) على الظرف ( بعد ) وأشارت الفاء في فاستكبروا إلى أن فرعون وملائه قد سارعوا إلى ادعاء الكبر من غير استحقاقه ، وأشار التعبير بقوله « وكانوا قوما مجرمين » إلى أنهم قد طبعوا على الاجرام وجبلوا

عليه وأعرفوا في الإنصاف به ، وأنهم أبدا على أهبة القيام لنصرته ، وكل ذلك دفعهم إلى الإسراع في الطعن في الحق من غير تأمل ولا تدب . ثم قال « فلما جاءهم » معبرا بالفاء ولما .

موقفهم هذا من الحق جدير بأن ينكر عليهم وأن يوبخوا عليه . . . . .  
مخاضهم ومن ثم جاء رد موسى عليه السلام متطابقا مع هذا : « انقولون  
للحق لما جاءكم ؟ » . . . . .

دحر عمدة الانكار النوبيخي التفسيرى على المضارع ( تقولون )  
، نزل على أنهم كرروه لينسخوا ما ثبت في قلوب الناس من عظمتهم (١)  
ومفعول القول — كما سبق — يحتمل الحذف على تقدير : أتقولون بلحق  
لما جاءكم انه سحر « ويحتمل أن يكون الفعل ( تقولون ) بمعنى تعيينون  
وتذمون ، فن القول يطلق على المكروه ، يقول فلان ، وقال في فلان يعنى  
ذمه . وفلان يخاف القلة ، وبين الناس تقول « (٢) واللام في ( للحق )  
على هذا الوجه بمعنى في زمانه ولأجله ويحتمل أن يكون مفعول (تقولون)  
هو قوله ( أسحر هذا ) بناء على أنه حكاية لمقالهم ، وهو وجه ضعيف (٣)  
فالانس بالسياق أن الاستفهام في ( أسحر هذا ) صادر من سيدنا موسى  
عليه السلام تأكيداً للانكار السابق في قوله : ( أتقولون . . . ) « وتكذيباً  
لقولهم وتوبيخاً لهم على ذلك اثر توبيخ وتجميل » .

أما على أن تقولون على معناه مظاهر ، وأما على أن تقولون بمعنى  
تعييرون وتذمون فوجه ايثار كونه سحرا على انكار كونه عيبا بأن يقال  
مثلا : أفیه عیب ؟ حسبما يفنضيه ظاهر الانكار السابق انما هو التصريح

- (١) البقاعي : نظم الدرر ٣ ورقة ٢٨ ( مخطوط )  
(٢) المرجع السابق ، الكشف ٢/٢٤٧ : انوار التنزيل ٥٣/٥ .  
(٣) انوار التنزيل ٥٣ ، البحر المحیط ٥ ص ١٨١ .

بالرد عليهم في خصوصية ما عابوه به بعد التنبيه بالانكار السابق على أن ليس فيه شائبة عيب ما ، وما في ( هذا ) من معنى القريب لزيادة تعبير المشار اليه واستحضار ما فيه من الصفات الدالة على كونه آية على الناس . آيات الله المنادية على امتناع كونه سحرا ، أي أسحر هذا الذي أه ، واضح مكتشف ، وشأنه مشاهد معروف بحيث لا يرتاب فيه أحد ممن له عين مبصرة . وتقديم الخبر ( سحر ) على المبتدأ ( هذا ) للايذان بأنه مصب الانكار (١) .

وهذا التوجيه الذي اخترناه في ( أسحر هذا ) يتناسق ويتناغم مع عطاء حذف معمول (أقولون) . وهو حذف قد ج - به لغة العرب (٢) وله هنا عظيم الأيذان بأن ما قالوه في هذا الحق الصراح مما لا ينبغي أن ينقوه به . ولو على زيج الحكية . أي أقولون به ما نقولون من أنه سحر ؟ يعني به أنه مما لا يمكن أن يقوله قائل . ويشتم به متكلم . (٣) . وفي هذا تبيان لشاعة ما يسارع اليه المجرمون في تلفي الحق بما لو تأنوا وتاملوا ما سارعوا اليه لساخت أقدامهم خجلا .

عطاء الاستفهام في ( أسحر هذا ) ينفذ مع عطائه في ( أ تقولون ) ومع عطاء حذف المعمول لأن ذلك كله قد خرج من متكاة واحدة وقاضت به نفس سيدنا موسى عليه السلام المفعمة بالانكار عليهم والتسفيه لأحلامهم والتبكيت لحالهم ، والتجهيل لمقالمهم .

ومما يخفى ذلك وينميه ما ذهب اليه الامام البغوي من أن الآية أقيمت على نهج الاحتباك . « الحذف التقابلي » تقديره :

- ابو السعود ارشاد العقل السليم ج٤ ص ١٦٨
- (٢) ابو السعود : ارشاد العقل السليم ج٤ ص ١٦٨
- (٣) ظر البحر المحيط ج٥ ص ١٨١



١ - أتقولون الحق لما جاءكم ( هذا سحر ) •

٢ - أسحر هذا ( منى نقولوا فيه ذلك ) •

حذف السحر أولا . ودكره ثانيا . ودكر القول أولا وحده سببا ومن ثم  
بشر البقاعى الى السر العمالى لبناء الآية على نهج الاحتباك . ومن بعد  
فهمه للآية على هذا النهج يشير الى أنه داهب الى أن عطاء الاستفهام  
في ( أتقولون ) وفي ( أسحر ) متشابه متناغم كما سبق تبينه ، ويشير  
أيضا الى أنه يذهب الى أن قوله تعالى ( تقولون ) على ظاهره والمقبول  
محذوف وليس بمعنى تعيينون •

وكأني بالبقاعى يريد ان الاستفهام الانكارى الصادر من موسى  
موجه الى القول والى السحر . بمعنى أنه ينكر ان يكون هذا الحى  
سحرا ، ويسفه من توسوس له نفسه بذلك وان يجهر به ، فكيف يمن  
بجهر ، وبمن يكرر ذلك ؟

أما الاستفهام الثالث فى الآية « قالوا أجتئنا لتلفتنا ... الخ »  
فهو صادر عن المجرمين من آل فرعون ، وينم عن مخادعة مكشوفة •  
حيث ان موسى عليه السلام لما أنكر عليهم وسفه أحلامهم وأفحمهم كان  
مقتضى المقام أن يكون ردهم على موسى عليه السلام اثبات اتصاف  
ما جاءهم بالسحر لكنهم يعلمون مبلغ عجزهم عن ذلك ، ومن ثم « عدلوا  
عن جوابه الى الاخبار بما ينضمن أنهم لا يقرون بحقيقته ، لانه يلزم  
على ذلك ترك ما هم عليه من العلو ، وهم لا يتركونه ، وأوهموا الضعفاء  
أن مراده — عليه السلام — الاستكبار ، معللين لاستكبارهم عن اتباعه  
بما دل على أنه لا مانع لهم منه الا الكبر » (٢) •

(١) البقاعى : نظم الدرر ٣ ورقة ٢٨ ( مخطوط ) •

(٢) الموضوع السابق •

فلاستفهام في ( جئتم به ) انخاري توبيخي ، قصده ا .  
 صرف عقول السعفاء عن فشلهم في محاجة موسى عليه السلام . . .  
 بما منعهم من اتباع موسى — عليه السلام وهو امان :

الأول : التمسك بمنهج الآباء .

الآخر : التمسك بحقهم كأبناء الصفوة في الدروس .

هذان الأمران يفعلان في السواد الاعظم فعل السحر وأشد حيث  
 لا يسمح العامة لأحد أن يحطم شيئاً منهما .

الاستفهام التوبيخي وإيراده في هذا السياق وجعله منصب على  
 المجيء المرتبط بهذين الأمرين أدكى فاعلية الحسار . وكشف عن خبث  
 طوية المجرمين في محاولة اذهاب الحق .

أما الاستفهام الرابع « قال لهم موسى : ما جئتم به السحر على  
 قراءة أبي عمرو حيث زاد همزة استفهام قبل همزة الوصل في السحر (١)  
 وعليه فان ( ما ) في « ما جئتم به » استفهامية تقيد الاحتقار لما جاءوا  
 وانكروه . وكأنه — عليه السلام قال : أي شيء جئتم به ، انه أحقر من  
 أن يكون شيئاً . وزاد في بيان الاحتقار والاكثار بقوله ( السحر ) وكل  
 ذلك بتناسق ويتناغم مع قوله ( ألقوا ما أنتم ملقون ) وكان موسى عليه  
 السلام بهذين الاستفهامين قد كافأهم عندما أتوا بالسحر بمثل مقالتهم  
 عندما أتى بالحق . ذلك ما تعطيه قراءة أبي عمرو .

أما قراءة الجمهور ( ما جئتم به السحر ) فانها تقيد أنهم حين  
 قالوا في ما أتى به من حين انه سحر . وكان موسى عليه السلام قرر أن

(١) شرح الشاطبة لابن الناصح ص ٢٢٠ ، غيث النفع للمسفاقي  
 ص ١٢٦ .

ما يلقوه أنكر من أن يلقى له بالا ( ما أنتم ملقون ) فلما ألقوا وكانوا قد سحروا أعين الناس واسترهبوهم . ما كان من موسى عليه السلام إلا أن يقرر قصر السحر على ما جاءوا به ، اللازم له نفى أن يكون ما أتى هو به سحرا كما زعموا . ومن ثم جاء بعد أسلوب القصر على قراءة الجمهور لقوله ( ما جئتم به السحر ) بقوله : ان الله سيبيطه . وائررد على قوتهم المؤكد ( ان هذا السحر بين ) بأسلوب قصر كما يفيد قراءة الجمهور أقوى ولا سيما أنه قصر صفة على موصوف فهو من قبيل قصر النقب . ذلك أن مجرمين حين أرادوا التسلل إلى الخديعة تضعف العقول تحت ستر أسنوب الاستفهام الانكاري في ( أجبنا ) كان الأقوى أن يلق ذلك الباب دونهم حتى لا يتمادوا فيه ، فنظمهم بأسلوب القصر ، ولا سيما حين يكون أسلوب قصر صفة على موصوف قريبا ، نحو أغتني في القام الخضم حجرا ، ومثله تراء في ( غدوا انما نحن مصلحون ، ألا انهم هم المفسدون ) .

ومما ينمى هذا المعنى ويركيه أن عقب عليه بقوله « ان الله سيبيطه ان الله لا يسنح عمل المفسدين ويحق الحق بكلماته ولو حره المجرمون » .

وقد يأتي الاستفهام منها الاذهان إلى أن ما يستفهم عنه أمر جدير بالاهتمام ، والتوقف عنده . والتفتيش فيه لوعى شيء مما فيه من أسرار وأنوار بها صلاح المجتمع وسعادته ، ترى ذلك باديا في قوله تعالى :

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ... » (الذاريات: ٢٤) .

في ذلك الاستفهام تفخيم لشأن حديث ضيف إبراهيم عليه السلام ، وفيه تعجب مثير للمتنقي . محرك لوجدانه وفكره ، دافع له إلى الوقوف على ما استفهم عنه . لأنه يأخذ بلبه ، فلا يدع فيه لغيره شيء ،



وذلك هو أسر الحديث وهيمته . واثباته في الآيات السابقة  
بأشياء الماضية ، وان كان المحبر عالما بأن الحديث لا يثبت إلا بما  
كان المقصود ليس إلا التنبية على أن تلك الآيات لا يمكن الاعتماد  
والبحث عنه لتعرف ما فيه من الأمور الحثيثة . (١) .

وفي أفراد كاف الخطاب في ( اناك ) المراد في هذا القسم لاؤه  
سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم . إشارة إلى أنه لا يثبت ما في حديث  
ضيف إبراهيم عليه السلام من اسرار وأنوار حتى فهمه سورة حسى .  
عليه وسلم .

وفي ادخال ( هل ) على الفعل الماضى ( أتاك ) إشارة إلى أن ذلك  
الحديث لم يكن عنده صلى الله عليه وسلم من قبل . وإنما علمه من  
طريق الوحي .

وفي اسناد الفعل ( أتى ) اللاتق بالمعنى والأزمان (٢) إلى الحديث  
نسخيخ لذلك الحديث وكأنه صار هو الذى يأتى اليك شوقا اليك  
وايناسا وترويجا بسماع حديث أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام .

وفي التعبير عن قصة إبراهيم مع الملائكة بالحديث إشارة إلى أنه  
لم يتقدم له علم به من قبل الوحي وإنما هو شيء حدث له صلى الله  
عليه وسلم . وإلى أنه سيوحى هنا على سبيل الايحاز . لا الاطناب  
الملائم للفظ القصة الدال على التتابع (٣) .

(١) البقاعى : نظم الدرر ح ٥ ورقة ٢٦٢ (مخطوط) رقم ٢١٣ تفسير

(٢) مناط الفرق بين الفعل ( جاء ) والفعل ( أتى ) ان جاء يقال فى

الجواهر والاعيان واتى فى المعانى والازمات - ينظر البرهان فى علوم

القرآن لازركشى ٨٠/٤ .

(٣) ينظر : الفروق فى اللغة للعسكرى ص ٢٢ - ٢٣ .

قرر القرآن الكريم ذلك في غير موضع (١) نتأمل هنا ما في النازعات  
من قوله تعالى : « هل أتاك حديث موسى • إذ ناداه ربه بالوادي المقدس  
حنوى • اذهب الى فرعون انه طغى » ... الى « ان في ذلك لعبرة لمن  
يخشى » •

جاءت تلك الايات في هذه السورة عقب تبيان احوال يوم  
القيامة وما يكون قبله من أحداث يحتمها بقوله ( فانما هي زجرة  
واحدة • فاذا هم بالساهرة ) ثم يورد من بعد ذلك قصة موسى عليه  
السلام مذ جعله نبيا الى أن أغرق الحق فرعون • في بيان موجز لم يتعد  
احدى عشرة آية قصيرة •

واختيار حديث موسى وما كان منه مع فرعون وقومه في سياق  
سورة النازعات وعلى ذلك البناء اللغوي المعجز انما كان على هذا الوجه  
لأن موقف موسى عليه السلام مع القبط أشبه شيء بالقيامة لما حصل  
من التقلبات والتغيرات وايجاد المعدومات من الجراد والقمل والضفادع  
على تلك الهيئات الخارجة عن العادات في أسرع وقت • وقهر الجبابرة  
والمن على الضعفاء حتى كان آخر ذلك أن حشر بنى اسرائيل فنشطهم  
من بين القبط نشطا رثيفا كلهم وجميع ما لهم مع دوابهم الى ربهم ، وحشر  
جميع القبط وراءهم فنزعهم نزعا كلهم بحشر فرعون لهم بأصوات  
المنادين عنه في أسرع وقت وأيسر أمر الى هلاكهم ، كما يحشر الأموات  
بعد احيائهم بالصيحة الى الساهرة ، ثم كانت العاقبة في الطائفتين بما  
للمدبرات أمرا أن نجا بنو اسرائيل بالبحر ، كما ينجو المؤمنون يوم

(١) جاء ذلك في سورة ( طه / ٩ ، ص / ٢١ ، الذاريات / ٢٤ ،  
النازعات / ١٥ ، البروق / ١٧ ، النازية / ١١ •

القيامة بالصراط ، وهلك فرعون وآله به ، أما .....  
 بالصراط » (١) .

وهذا التشابه البالغ بين الموقفين لا يدركه من لم يدره ولا يدره  
 حق وعيه غير سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ومن كان من أولاده من  
 العلماء العارفين . لذا بدأ بيان ذلك بموسى ( بل من حديث موسى )  
 مخاطبا لأشرف الخلق إشارة الى أنه لا يعتبر هذا من العجائب إلا لمن  
 مستفهما عن الاتيان للتحذير والحد على جمع النفس على التأمل والتدبر  
 والاعتبار مقدرا ومسليا له — صلى الله عليه وسلم — ومهددا للمكذبين  
 أن يكون حالهم وهم أضعف أهل الأرض لأنه لا ملك لهم كحال فرعون  
 في هذا وقد كن أقوى أهل الأرض بما كان له من الملك وكثرة الجنود  
 وقوتهم ومرودهم في خداعهم ومكرهم .... » (٢) .

وقد كن في ختم هذا البيان بقوله ( أن في ذلك عبرة لمن يخشى )  
 مزيد تأكيد شديد الاعتلاق بين ما كان من موسى كليم الله — عز وجل —  
 مع بنى إسرائيل وما يكون يوم ترجف الراجفة .

فالتعبير بقوله ( عبرة ) إشارة الى أن في إيراد ذلك في هذا السياق  
 ما يعتمد معبرا من أحداث قصة موسى عليه السلام الى ما يكون يوم  
 القيامة فخير الاعتبار ما كان بحال غير المعتبر .

وفي التعبير بقوله لمن يخشى إشارة الى أن فقه الاعتبار القرآنى  
 لا يكون الا لمن خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب .

(١) البقاعى : نظم الدرر ج٦ ورقة ٢٥٢ ( مخطوط ) رقم ٢١٢ تفسير

(٢) المرجع السابق .



وقد يأتى الاستفهام ، ويكون محور عطائه النفى ، تدرك ذلك  
بإدراكه فى قوله تعالى : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » (الرحمن : ٦٠)  
وقوله : « فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » (الأحقاف : ٣٥) •

وما اجتمعت ( إلا ) وأداة الاستفهام إلا وكان محور عطاءات  
الاستفهام النفى ، وجلى أن النفى حينئذ غير حى يكون بأداة موضوعة  
له كـلم ولـنّ ما مضت الإشارة إليه . الاستفهام المقيد للنفى ما يزال فيه  
عطاء الطلب وإن تفاعل مع الطلب معان أخرى • وحين يفسد النفى  
بالاستفهام يكون القصد الرئيس أنى تغفل هذا النفى فى قلب المتلقى  
وعقله ، لأنه يبدو عيانا فى صورة طلب ، فيسعى المتلقى الى الحقيقة  
بنفسه فيعثر بها من بعد ضيق واستشراق فتكون فى القلب أوقع  
وأففع ، وللنفس أنفة وأمتع • فإن كن النفى بأداته الموضوعة له كان  
الأسلوب خبريا تقريريا لا إثارة فيه ولا استشراق ، وقد يسكب فى  
الآذان ، والقلوب فى غفلة فيمر عليها وهو منطلق •

لتأخذ قوله تعالى : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر  
فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين  
لهم فى الدنيا حزن ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (البقرة : ١١١) •

الآية وإن تعددت أسباب نزولها (١) فإن عطاءها عام فى كل مسجد  
وليس خاصا ببيت المقدس أو البيت الحرام ، وعام فى كل ضرب من  
ضروب المنع والتخريب • وذلك وفقا لما أقيم له كل مسجد فتمت  
مسجد أقيم لأداء المكتوبات دون الجمعة ، ومسجد جامع ، وثالث لذلك  
ولتلقين العلم والمعرفة للعامة أو الخاصة أولهما معا ومسجد هو مثابة  
مجمع لقوى الخير : صلحا بين المسلمين وتخطيطا لإصلاح أو تخطيطا

(١) الواحدى : اسم المسجد فى القرآن ٢٣

مانع فساد ، وتجهيزا لجهاد في الله فلكل رسالته ، ومنع أي صنف منها أو جانب من جوانبها داخل تحت هذا الحكم ، فكم من ذي سلطان قد زلق به قدمه فمنع وسعى في تعطيل شيء من رسالة المسجد ، وكم من حاكم أبى إلا المكتوبات في مساجد الله ، فكمم أفواه الأمرين فيها بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والكائفين خبث الفساد ، ورجس الطاغوت فأولئك مرازيح تحت سطوة هذا الحكم القرآني .

الآية تنفي أن يكون في عالم المنع أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه .... وقد جاءت بهذا النفي في تركيب استفهامي كيما يتّون مستقرا في كل قلب ، متعلّعا في كل نفس ، فكان كالطالب ادراك ذلك ، فإذا بكل متلق منقب مقارن وموازن بين ضروب المانعين بحثا عن أظلمهم ، فلا يكون إلا ما أراد القرآن الكريم أن يستقر قراره وترسخ جذوره في نفس كل متلق ، فيلتقي الجميع على كلمة سواء : أن لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه .....

لنتنظر في ايقاع المنع على المساجد ، والأصل أن يكون المنع لمن يذهبون اليها لذكر الله ... ان فيه احياء بأن في هذا المنع حرمانا لهذه البقاع التي اختارها الله لتكون خير بقاع الأرض من التلذذ بذكر الله عليها وكأنها تأنس بهذا الذكر وتتوق اليه ، وكأنه زادها ورحيقها ، فمنع الذاكرين فيها هو في الحقيقة منع لمساجد الله مما أقامها الله له ، وكان سطوة أولئك الجبارين لم يكفها ظلم عباد الله ، فراحت تظلم ما حماء الله لذكره من بقاع الأرض فاجتباها مواطن قرب ورحمة وجعلها مساجده ، فأى ضلال بعد هذا ؟ وأي مصير أعد لأولئك الجبارين « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خاطئين ، اهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » .



في تضاعيف هذا الوعيد للجبارين والتهديد والانذار يقوم التبشير  
للدعاة الى الله الامرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن الله ناصرهم  
وآخذ بأيدهم الى مدارج العزة والمتعة وان أحكم الجبارون في كل زمان  
ومكان سطوتهم على مساجد الله فمنعوا الدعاة الى الله من مقال الحق  
وجلا عن سوء عقبي ملكهم وتناسوا أن الحق قد قضى أن لهم في الدنيا  
خزيا وفي الآخرة عذابا عظيما .

قوله ( ومن أظلم ) تنثر في القرآن الكريم في غير موطن هذه  
الآية أولها ومنها « ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله »  
( لبقرة: ١٤٠ ) .

وقوله : « ومن أظلم من افترى على كذبا أو كذب بآياته »  
( الأنعام : ٢١ ) .

ومنها قوله « ومن أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها »  
( الكهف : ٥٧ ) الى غير ذلك .

« ولما كان هذا الاستفهام معناه النفي كان خبرا ، ولما كان  
خبرا توهم بعض الناس أنه اذا أخذت هذه الآيات على ظواهرها سبق  
الى ذهنه التناقض فيها » (١) .

وقد تعددت طرق المفسرين في الجواب عن ذلك (٢) وخيرها  
عندي طريقتان : —

الأول : تخصيص كل واحد في هذه الآيات بمعنى صلته فصلة

(١) ابو حيان : البحر المحيط ج١ ص ٣٥٧ .

(٢) الموضع السابق ، البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٤ ص ٧٨ — ٧٧ .

الموصول عنصر فاعل في المفارقة بين هذه الآيات ، فإذا تخصصت بالصلوات زال عنده التناقض (١) .

الآخر : وهو أمكن في المعنى وسالم عن الاعتراض ، وهو الوقوف مع مدلول اللفظ من الاستفهام ، والمقصود به أن هذا الأمر عظيم فظيع ، قصدنا بالاستفهام عنه تخيل أنه لا شيء هو ، لامتناء قلب المستفهم عنه بعظمته امتناء يمنع من ترجيح غيره ، فكانه مضطر إلى أن يقول : لا أحد أعظم .....

وكثيرا ما يستعمل هذا في الكلام إذا قصد به التهويل ، فيقال : أي شيء أعظم من هذا ؟ إذا قصد افراط عظمته ، ولو قيل للمتكلم بذلك : أنت قلت أنه أعظم الأشياء لأبى ذلك ، فليفهم هذا المعنى ، فإن الكلام ينتظم معه والمعنى عليه « (٢) » .

مرفأ السلفين :

هذا نزير من عطاءات تراكيب الاستفهام ، وإدراك شيء منها بحاجة بالغة فسيحة للسياق الذي يأتي التركيب على وجه لاجبه ففاضت عطاءاته وللقرائن والملابسات التي أحاطت به فحررت شيئا من دقائق إفاداته ، وبحاجة جد شديدة إلى التفرس في عناصر بناء المعنى وتشكيله ، ومناهج اعتلاقيها وكلما كانت الحاجة إلى تلك المراجعة وهذا التفرس أشد كان العطاء أوفر وأجدي وأزكى وأسمى واختطاف العطاء من التركيب بأدنى مراجعة لا يجعل العطاء لائطا بالقلوب ، متغلغلا في النفوس ، بل يكون عطاء غير شهي وعطاء مبتذلا تستطيع كل يد أن تتذله .

(١) ابن حبان : الموضع السابق .

(٢) الزركشي : البرهان .



ومن سمات الكلمة الالهية المعجزة أنه على قدر التوفّر عليها يكون المنح والعطاء ، فهي تعطى من تعشق اختطاف الجنى ما يقيمه وتمنح من كثرها من أعد العدة للمراجعة والنفرس والتأمل ، والتدبر على قدر ما أعد ، فهي مائدة الله ، وهي التي لا تطلق على كثرة الرد ومن ثم حث القرآن الكريم على التدبر بكل ما نحمله هذه الكلمة من تبعه وعطاء وكتاب أنزلناه إليك مبارك ليبدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » .

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ومفتاح القلوب طاعة الله والامتثال حتى لا ترى في الكون سواه وحينئذ تتوالى العطاءات . « هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » . صدق الله العظيم .

دكتور

محمود توفيق محمد سعد

مدرس البلاغة والنقد بجامعة الأزهر

skonelrouh ❤️

١٨ يناير ٢٠٢٥ ١٥:١٦